ثانيًا: الدراسات التي تناولت العلاقة بين نوعية البيئة وتشكيل سلوك الأطفال

لقد أصبح واضحًا أن ثمة نوعين من البيئات، هما: البيئة الطبيعية، والبيئة البشرية، ولكل من هذين النوعين أثره الواضح في تشكيل السلوك. فالبيئة الطبيعية بما تشتمل عليه من تنبيهات تتصل بالطبيعة، تشكل السلوك بما ينسجم ونوعية التنبيهات الحادثة فيها، وكذا الحال مع البيئة البشرية إذ يتشكل السلوك في هذه البيئة طبقًا لنوعية التنبيهات السائدة فيها. وفي هذا السياق سنتحدث بشيء من الاختصار عن العلاقة الحادثة بين نوعية هذه البيئات والأنماط السلوكية المتوقعة لدى الأطفال.

لقد وُجد أن ثمة أنماطًا سلوكية لدى الأطفال تأخذ في التشكل عند العيش في بيئة طبيعية تكثر فيها الزلازل والبراكين، أو العيش في منازل في وسط العراء، أو العيش في منازل متداعية، تفتقر في الداخل إلى بعض التسهيلات، فضلًا عن معاناة الساكنين فيها من الازدحام. وما يهمنا هنا، أن العيش في بيئة طبيعية من نوعية معينة يفضي إلى تنمية أنماط سلوك معينة لدى الأطفال .

كما وجد أن سلوك الأطفال يتشكل طبقًا لنوعية البيئة الاجتماعية، وإذا نحن استعرضنا البيئات الاجتماعية المؤثرة في سلوك الأفراد عمومًا نجدها تترتب على النحو الآتي:

١- البيئة الاجتماعية الأولى، وتتألف من: الأسرة المدرسة والأقران.
٢- البيئة الاجتماعية الثانية، وتتألف من: العلاقات المتبادلة بين الأسرة والمدرسة والأقران.
٣- البيئة الاجتماعية الثالثة، وتتألف من: الجيرة المحلية وأصدقاء الأسرة ووسائل الاتصال الجماعية.

٤- البيئة الاجتماعية الرابعة، وتتألف من: الأيديولوجية السائدة في الثقافة[٤].

إن السياق الذي ترتبت فيه هذه البيئات الاجتماعية المصغرة، إن صح التعبير يعني بين ما يعني، أن التأثير يبدأ أولًا في البيئة الاجتماعية الأولى، ثم بعد ذلك في البيئة الاجتماعية الثانية، وهكذا دواليك إلى البيئة الاجتماعية الرابعة، بمعنى أن البيئة الاجتماعية الأولى تعد المحيط الاجتماعي الأول الذي يؤثر في سلوك الطفل، ثم يأتي بعده في المقام الثاني البيئة الاجتماعية الثانية، وهكذا يقل التأثير في سلوك الطفل، كلما ابتعدنا عن البيئة الأولى واقتربنا من البيئة الرابعة. وبهدف معرفة الأنماط السلوكية المترتبة علي وجود الأطفال في هذين النوعين من البيئات، ندرج في أدناه الدراسات التي تناولت العلاقة بين هذين المتغيرين .

الهوامش

(١) أنا إنستازي وجون فولي . سيكولوجية الفروق بين الأفراد والجماعات، ط١، ترجمة: محمد خيري وآخرون. (القاهرة: الشركة العربية للطباعة والنشر، ١٩٥٩، ص١٤٥.

(٢) زين الدين عبد المقصود. البيئة والإنسان: علاقات ومشكلات. (الإسكندرية: منشأة المعارف،١٩٨١)، ص٧.

(3) R.J. Linke.Environmental education in Australia .(London: george Allen and unwin, 1979),p.19

(4) E.M.Hetheriny ton and R.D.parke. child psychoiogy:A contemporary view point ,3rd ed (new york :mcgraw- Hillbook company, 1986),p.14-15

L.G. Calhoun and et al Dealing with crisis: Aguideto critical life problems. (new Jersey: prentice - hall,inc. engle wood cliffs,1976),p.8

تصميم البيئة المزدحمة وأثره في تنمية الأنماط السلوكية لدى الأطفال

المقدمة

أصبح واضحًا أن السلوك البشري الذي يتأثر بالبيئة الاجتماعية والثقافية يتأثر هو الآخر بالبيئة الطبيعية سواء بمكوناتها أو بالتصاميم المعمارية الحادثة فيها. إذ تشير الشواهد الواقعية -فضلًا عن الدراسات التي أجريت في هذا الصدد- أن طبيعة تصميم البيئة السكنية، قد أخذ يؤثر تأثيرًا بيِّنًا علي سلوك الأفراد، وفي هذه الدراسة سوف نحاول معرفة العلاقة بين تصميم البيئة، والأنماط السلوكية لدى الأطفال، على أن حديثنا سيقتصر علي البيئة المزدحمة، أو غير المخططة حصرًا انطلاقًا من الفرضية القائلة:

"إن تكدس الأفراد في مساحة تضيق بهم سيؤدي إلى اكتساب أنماط سلوكية غير مرغوب فيها".

ولأجل اختبار مثل هذه الفرضية، يقتضي الأمر الاعتماد على طريقتين اثنتين:

فأما الأولى: فهي إجراء دراسة ميدانية على بعض الأنماط السلوكية بين الأطفال الذين يعيشون في بيئة مزدحمة، وأولئك الذين يعيشون في بيئة أقل ازدحامًا، وقد تسفر هذه المقارنة عن عدد من الأنماط السلوكية التي يتميز بها الأطفال، ولا سيما البيئة غير المخططة.

وأما الطريقة الثانية: فهي رصد الأنماط السلوكية التي يتسم بها أطفال البيئة المزدحمة أو غير المخططة، وذلك من خلال متابعة النتائج التي أسفرت عنها الدراسات، ثم بعد ذلك نعود إلى تحليل هذه النتائج وتفسيرها استنادًا إلى المنطق العلمي .

في هذه الدراسة سيقتصر الحديث علي مناقشة الفقرات الآتية :

- مفهوم الازدحام.
- الوظائف النفسية للتصميم المعماري.
- التصميم المعماري للبيئة المزدحمة، وأثره على تنمية الأنماط السلوكية لدى الأطفال.

مفهوم الازدحام

بادئ ذي بدء، نقول: إن الازدحام crowding يشير إلى حضور الآخرين[١] الذي ينجم عنة شعورٌ بالضيق وعدم الارتياح؛ نتيجة القيود التي تُفرض على سلوك الفرد، فضلًا عن الضغوط التي يتعرض لها جراء وجوده في حضور الآخرين.

وإذن: فإن الازدحام هو متغير نفسي أكثر من كونه متغيرًا فيزيقيًّا.

ومما له دلالة في هذا الصدد، هناك عدد من المصطلحات التي تشير إلى معنى الازدحام، ولعل من بين هذا المصطلحات: الكثافة والتزاحم والتكدس.

فأما الكثافة density فنعني بها "ارتفاع نسبة الإشغال[٢]" في مكان ما.

إذا نحن حاولنا أن نحلل هذا التعريف وجدنا:

١- أن ثمة عددًا من الأفراد يشغلون مكانًا ما.

٢- وهو عدد يفوق الطاقة الاستيعابية للمكان -أو بمعنى آخر- إن المكان قد ضاق بهم، مما ترتب على ذلك ارتفاع نسبة الإشغال.

واضح أن الكثافة كما يشير التعريف متغير فيزيقي وحسب. وعند عقد مقارنة بين مصطلحي الازدحام والكثافة، نجد أن الازدحام يتميز عن الكثافة في كون الأول يعتمد على إدراك الفرد نفسه للموقف الذي يتعرض له، فقد يدركه مزدحما بينما يدركه غيره في اللحظة نفسها أنه أقل ازدحامًا، أو ليس هناك ازدحام بالمرة، ولعل الأمر نفسه ينطبق علي مواقف أخرى، فقد يدرك الفرد موقفًا ما أنه غير مزدحم، في حين يدركه آخرون في اللحظة نفسها، أنه شديد الازدحام. وإذن فإن الموقف الذي يتعرض له الفرد هو الذي يقرر

وجود الازدحام من عدمه.

وهنا يبرز إدراك الفرد للموقف الذي يتعرض له في لحظة ما، ونشدد علي قول (لحظة ما) إذ إن الفرد تتغير حالته المزاجية من لحظة إلى أخرى اعتمادًا علي التنبيهات الموجودة في الموقف، والحالة المزاجية التي يتمتع بها الفرد في اللحظة الراهنة تعد عاملًا مهمًّا في تكوين مدركاته عن المواقف والأحداث المحيطة به.

وأما الكثافة فهي متغير فيزيقي، إذ يقاس بعدد الذين يشغلون المكان، فإذا زاد الأفراد عن حجم المكان، عُدَّ ذلك مؤشرًا على وجود كثافة مرتفعة، وإن قل الأفراد عن الحجم المحدد، فذلك مؤشر على تدني الكثافة في المكان المعني.

وإذن: فإن الفرق بين الازدحام والكثافة يكمن في أن الأول ظاهرة نفسية، بينما يعد الثانى ظاهرة فيزيقية بحتة، يمكن الكشف عنها من خلال معرفة حجم الأفراد مع معرفة المساحة التي يشغلونها عن المصطلحات الدالة على الازدحام: التزاحم والتكدس.

فالتزاحم: يشير إلى ارتفاع نسبة الإشغال داخل الغرفة الواحدة، على أن نسبة الإشغال هذه لا تتسم بالثبات، وإنما تتسم بالتغير، والتغير هنا يتحدد بالعامل الثقافى. فقد تعد نسبة إشغال معينة في ثقافة ما مقبولة، ولا تشير إلى التزاحم، بينما تعد هذه النسبة في ثقافة أخرى غير مقبولة، إذ تشير إلى التزاحم، وبهذا المعنى فإن المسألة تخضع إلى العامل الثقافي أكثر من خضوعها إلى العامل الإحصائي.

ففي بعض الثقافات الأوروبية على سبيل المثال لا الحصر، تعد نسبة (١.٥) شخص في الغرفة مزدحمة، وما زاد عن هذه النسبة، تعد الغرفة مزدحمة جدًّا[٣] بيد أن هذه النسبة تعد مقبولة في ثقافة أخرى.

ففي العراق مثلا تعد نسبة الإشغال التي تتراوح بين (٢.٣٣-٣.٦٨) شخص في الغرفة الواحدة مزدحمة[٤]، وهذا يعني صراحة أن نسبة الإشغال (١.٥) شخص أو أكثر تعد نسبة إشغال مقبولة استنادًا إلى المؤشر المشار إلية، ولكن زيادة نسبة الإشغال بأكثر من (٢) شخص إلى (٣.٦٨) شخص تعد النسبة غير مقبولة، وتدخل ضمن نطاق الازدحام، وما زاد عن (٣.٦٨) شخص في الغرفة الواحدة تعد هذه النسبة غير مقبولة أيضًا، وتدخل ضمن نطاق الازدحام الشديد[٥].

إذا كان التزاحم يشير إلى ارتفاع نسبة الإشغال داخل الغرفة الواحدة فإن التكدس يشير إلى المعنى نفسه، ولكن داخل المنزل الواحد. هذا يعنى أن التكدس يقاس بحجم المكان الذي تشغله الأسرة، ولكي تكتمل فكرة التكدس بصورة واضحة لا بد من اللجوء إلى صيغة إجرائية تجعل المصطلح أكثر وضوحًا؛ ذلك أن إشغال أسرة ما لمنزل بمساحة معينة ربما لا يعد تكدسًا؛ بسبب قلة حجم الأسرة فضلًا عن كفاية مساحة المنزل للإشغال، ومن ثَمَّ فإن هذه المساحة - وكذلك حجم الأفراد- لا يسبب لأهل المنزل شعورًا بالضيق والإرهاق.

وإذن فإن المساحة المخصصة لكل شخص مسألة لا بد من مراعاتها عند تقرير التكدس في مكان ما. نشير في هذا الصدد إلى أن إحدى الدراسات اتخذت من المساحة المخصصة لكل شخص داخل المنزل معيارًا في تقرير التكدس إذ عدت المساحة التي تتراوح بين (٨.٣)م^{٢} إلى (١٤.٤)م^{٢} تكدسًا، وما قل عن (٨.٣)م^{٢} دالًا على التكدس المرتفع[٦].

واضح أن الازدحام يشتمل على معنى التزاحم والتكدس معًا. بيد أن نوع المكان هو الذي يحدد إن كان هناك تزاحم أو تكدس، فإن كان هناك ازدحام على مستوى الغرفة الواحدة عُدَّ ذلك تزاحمًا، وإن كان هناك ازدحام على مستوى المنزل الواحد عد ذلك تكدسًا.

الوظائف النفسية للتصميم المعماري

بات واضحًا أن التصميم المعماري هو أحد الميادين التي عني بها علم النفس البيئي.

والمقصود بالتصميم المعماري هنا: القدرة علي تكييف البيئة أو تعديلها، وفقًا لمقتضيات الإنسان سواء في الميدان النفسي، أو في الميدان الاجتماعي.

وإذن فإن التصميم المعماري يساعدنا على الدوام في تكييف وتعديل البيئة بشكل يتناسب مع حاجاتنا النفسية والاجتماعية، وفي المحصلة النهائية: إن البيئة المحيطة بالإنسان لا تتسم بالجمود أو السكون، وإنما هي في حالة تعديل مستمر طبقًا لمقتضياته لأن الإنسان هو المستفيد الأول والأخير منها، فلقد كُيِّفت وعُدِّلت بعض البيئات التي لم تكن في يوم ما صالحة للسكن البشري. بيد أن الإنسان بجهوده الدائمة في ابتكار المزيد من التصاميم البيئية جعل منها بيئات صالحة.

وفي الوقت نفسه عمد إلى خفض صعوبات العيش فيها، وعلى ذلك؛ فإن التصميم المعماري لا يوفر للإنسان البيئة التي تحميه من مخاطر الطبيعة فحسب، بل يحقق له إلى جانب ذلك جملة من الوظائف النفسية، وفي هذا السياق نستعرض أهمها:

١- تسهيل التفاعل الاجتماعي بين الأفراد في مجتمع يتسم بالعزلة بين أفراده وجماعاته، فضلا عن ضعف العلاقات الاجتماعية السائدة بين هؤلاء[٧]، وهنا يبرز دور التصميم المعماري في التقارب بين هؤلاء الأفراد والجماعات: كأن يزيد من اللقاءات بينهم على مستوى التسوق فيجعله موحدًا في الطرقات أو في السكن فيخفف من العزلة السارية بين المنازل أو بين الشقق السكنية فيجعلهم يلتقون في الفضاءات الموجودة بين المنازل، أو في الفضاءات المشتركة

بين الشقق السكنية؛ فيزداد بينهم التعارف مما يفضي إلى التفاعل الاجتماعي.

٢- تقليل معدلات الجريمة؛ لعل ذلك يتضح بإدخال بعض التحسينات على نوعية البيئة السكنية؛ وذلك بتقليل الازدحام داخل المنزل الواحد، وتيسير بعض وسائل الترفيه؛ بهدف إتاحة الفرصة للأفراد لقضاء بعض ساعات الفراغ فيها بدلًا من قضائها في طرقات المنطقة السكنية التي يحتمل أن تفضي إلى الشجار، ومن ثَم إلى العراك أثناء عملية التفاعل الحادثة بينهم.

٣- إن التصميم المعماري يعمد إلى تحسين نوعية الأداء في المؤسسات الإنتاجية والخدمية، وهذا يقتضي بطبيعة الحال إجراء تحوير أو تغيير في تصاميم هذه المؤسسات سواء على صعيد الأبنية، أو على صعيد مستلزمات العمل، بحيث تكون هذه التحويرات أو التغييرات تستجيب في المحصلة النهائية للإنسان كونه المستفيد الأول والأخير من مخرجات هذه المؤسسات.

٤- تقليل معدلات الإصابة بالاضطرابات النفسية والعقلية، وذلك باستثمار الفضاءات الموجودة في المناطق السكنية، وتحويلها إلى أماكن ترفيهية يقضي فيها الصغار والكبار ساعات الفراغ، أو عند الشعور بالضيق أو الاكتئاب؛ وبذلك فإن هذه الأماكن قد تسهم في تخفيف درجة الضيق والتوتر، وفي الوقت نفسه تسهل على الفرد فرصة اللقاء بأشخاص آخرين تجمعه بهم الصداقة والمودة قد يشكلون له مصدرًا مهمًّا في الإسناد الاجتماعي، وآية ذلك أنَّ العناية بتصميم البيئة السكنية سيجنب الفرد الإصابة المحتملة ببعض الاضطرابات النفسية أو العقلية.

٥- إن التخطيط السليم للبيئة السكنية وتجهيزها بشبكة من الخدمات التي تساعدها على التخلص من النفايات والملوثات سيشيع بيئة خالية من الأمراض، وبالتأكيد إن إشاعة بيئة نظيفة سينمي أنماطًا من السلوك المقبولة

بيئيًّا بين الأفراد، ووفقًا لهذا المنطق نتوقع أن يبرز سلوك المساعدة للأفراد الذين يقعون في محنة أو طارئ؛ بسبب أن الأجواء النظيفة ستحث الأفراد في التنظيم الاجتماعي على تقديم ألوان شتى من المساعدة، ويصح العكس لو كانت البيئة السكنية موبوءة بالأمراض فإنها ستعمد إلى طرد الأفراد من المكان غير آبهين ولا مكترثين بمصير أولئك الذين وقعوا في مشكله أو تعرضوا إلى محنة.

نقول: إن إشاعة بيئة نظيفة يعتمد بالدرجة الأساس على دقة التخطيط، إذ كلما كانت البيئة السكنية مخططة بشكل سليم أصبحت صالحة للسكن، وبالتبعية ستفضي إلى تنمية أنماط من السلوك المرغوب فيها.

٦- إن إشاعة أجواء من الترفيه والتسلية داخل المدينة سيخفف عن كاهل الإنسان بعض أعبائه الحياتية التي أخذت تؤثر تأثيرًا بيِّنًا على أدائه، وعلى علاقاته بأفراد أسرته.

وبطبيعة الحال فإن إشاعة مثل هذه الأجواء يستلزم جهودًا تخطيطية، وذلك بإعادة النظر في تصاميم بعض قطاعات المدينة بحيث تتساوى ومطالب الإنسان.

٧- إن زيادة عدد سكان المدينة سيفضي إلى ازدحام حركة المرور نتيجة الرحلات اليومية، ولاسيما في ساعات الذروة؛ مما يقتضي التدخل المباشر في تنظيم هذه الحركة وتخفيف الازدحام عن بعض الشوارع والطرقات في المدينة وهناك يسهم التصميم المعماري في وضع الخطط المناسبة لتقليل الازدحام، ومن ثم تسهيل حركة المرور، وهذا سيفضي بالنتيجة إلى تقليل المشكلات المترتبة على ازدحام المرور، ومنها على وجه التحديد: تقليل الإصابات الناجمة عن التصادم، وتخفيف حالة العدوان لدى سائقي المركبات، تلك الحالة

الناشئة عن الإرهاق النفسي، والتبرم جراء الانتظار، والاستياء من الضجيج الصادر عن منبهات المركبات.

٨- عند إنشاء المكتبات ينبغي أن تشيد على فضاءات بعيدة عن مصادر الضوضاء وعند وضع التصميم المعماري لها، ضرورة أن يعمد المصمم المعماري إلى جعل فضاءاتها الداخلية تحض على الهدوء والتزام الصمت، أو بمعنى آخر فإن الفضاءات الداخلية ينبغي أن توحي للداخل أن ثمة قُدسية للمكان وهو الأمر الذي يجعله يتخذ نمطًا معينًا من السلوك، ذلك النمط الذي يستند إلى خفض الحركة والسير الهادئ، والحديث بصوت منخفض مع العاملين، أو مع المستفيدين الآخرين .

٩- في حال إنشاء بيئات التعلم يقتضي من المصمم المعماري مراعاة المراحل الارتقائية التي يمر بها الإنسان، والحاجات النفسية المرتبطة بكل مرحلة عمرية، وهذا معناه أن لكل مرحلة عمرية بيئة تعلُّم تختلف عن المراحل العمرية الأخرى، فعلى سبيل المثال عند تصميم روضة للأطفال ينبغي هنا التقليل من التنبيهات التي تنطوي على التعقيد فى الفضاءات الداخلية إلى جانب إحداث تقارب بين بيئة الروضة، وبيئة المنزل الذى يعيش فيه الطفل بهدف جعل البيئة الجديدة أكثر ألفةً للطفل، وكذا الحال مع بيئات التعلُّم الأخرى ينبغي أن تشبع الحاجات النفسية للمستفيدين منها، وأن لا تبعث فيهم الملل والسأم، وإنما تعمد إلى دمجهم في نشاطاتها.

١٠-من الضروري عند وضع التصميم المعماري لأماكن التسوق مراعاة وضع الممرات والمداخل والفضاءات داخل السوق في أماكنها المخصصة لها؛ وذلك لتمكين المتبضِّع من التنقل بحرية دون أن يلامس أحدًا، مع احتفاظه باتزانه الانفعالي طوال جولة التسوّق، كما أن وجود التسهيلات داخل السوق تمكِّن المتبضِّع من انتقاء البضائع التي يحتاج إليها بكل سهولة ويسر.

١١- في التصميم المعماري للمتحف، ينبغي على المصمِّم تسهيل مهمة الزائر في التجوال في الأروقة؛ وذلك للاطلاع على المعروضات والنماذج التي تتحدث عن منجزات المجتمع عبر فترات زمنية معينة، فضلًا عن مساعدة الزائر في تكوين تصور واضح عن تاريخ المجتمع وخصائصه النفسية، دون أن يبذل مجهودًا بدنيًّا يجعله يحجم عن متابعة المعروضات الأخرى.

١٢- في حالة تخصيص دار لإيواء المسنين، لا بد أن يضع المصمِّم المعماري في حساباته أن هذه الفئة من الأفراد غير قادرة على بذل مجهود بدني كبير عند التنقل، ولما كانت هذه الفئة تعاني من متاعب صحية، فإن الأمر يقتضي أن تكون هذه الدار مؤلَّفة من طابق واحد؛ وذلك لتسهيل دخول المسِنّ أو خروجه إلى الفضاءات الداخلية للدار.

نقول: إن هذه الدار المؤلَّفة من طابق واحد، ينبغي على المصمِّم المعماري نبذ فكرة القاعات الكبيرة التي تحتوي على عدد من الأسِرَّة، والتركيز على فكرة الغرف صغيرة الحجم التي تحتوي على سريرين اثنين أو ثلاثة في أكثر الأحوال؛ وذلك لإتاحة الفرصة للمسنين للتمتع بشيء من الخصوصية مع الاحتفاظ بمسافة عن الآخرين لأغراض الخلوة الشخصية؛ ولتسهيل عملية التفاعل مع نزلاء الدار، يُفضَّل تشييد قاعة كبيرة تضم بعض التسهيلات، يلتقي بها هؤلاء المسنون؛ بهدف تبادل أطراف الحديث أو قضاء أوقات الفراغ فيها.

١٣- عند تصميم المستشفى، يفضل أن تكون قاعات المعالجة في المدخل؛ وذلك لتسهيل وصول المريض إليها، دون الحاجة إلى سؤال العاملين؛ ولأن المريض الذي يزور هذا المكان هو في حالة من الضيق والألم، ينبغي أن تسهل مهمته في الوصول إلى هذه القاعات دون عناء أو مشقة، كذلك يراعى في التصميم المعماري للمستشفى، أن تكون الصيدلية التي تزود المريض بالأدوية بالقرب من هذا القاعات، ويفضل كذلك أن تكون التسهيلات الأخرى في ممر

واحد؛ وذلك لتقليل جهد المريض.

١٤- إن تصميم البيئات المقيدة من قبيل: السجن، والمعسكر، والملجأ، يقتضي مراعاة الخصوصية التي تتمتع بها هذه البيئات.

أ- السجن

إن التصميم المعماري ينبغي أن يركز على فكرة الغرف الصغيرة المفتوحة من الأمام والتخلي عن فكرة القاعات الكبيرة؛ وذلك لمنع حدوث المشاجرات بين السجناء التي تنشأ عن الشعور بانتهاك المسافة الشخصية Personal space لكل منهم، أو تنشأ هذه المشاجرات بسبب التكدُّس على بعض التسهيلات، كما أن لهذه الغرف الصغيرة داخل السجن وظيفة أخرى، إذ إنها تمكن إدارة السجن من رصد التحرش الجنسي ومنعه في الوقت المناسب.

ولعل تزويد هذه الغرف ببعض التسهيلات من قبيل: الحمامات والمغاسل يقلل إلى حد كبير من حدوث المشاجرات، إلى جانب إنشاء فضاءات تشتمل على حديقة واسعة وملعب صغير لممارسة بعض الألعاب الرياضية أو لقضاء بعض الساعات فيها.

والحقيقة، إن هذا التصميم المعماري، إن أُخِذَ به يقلل من حدة المشكلات داخل السجون، وفي الوقت نفسه يخفف من أعباء المراقبة من جانب الإدارة، على أن يراعي في هذه الغرف عدد النزلاء، والعدد المقبول في بيئات مثل هذه هو (٣-٤) أشخاص، ولعل ذلك يرجع إلى أسباب عديدة منها: إن هذا العدد كما تشير الشواهد الواقعية يمكِّن النزلاء من تكوين علاقات تستند إلى الصداقة والمودة والألفة.

وبمرور الوقت تصبح هذه العلاقات أسرية أكثر من كونها علاقات مؤسسية، كذلك، فإن هذا العدد لا يستثير الضيق والتوتر لدى النزلاء، بل

يعمد في حقيقة الأمر، إلى تقديم ألوان شتى من الإسناد الاجتماعي في الحالات التي يقتضي فيها تقديم مثل هذا الإسناد، وبالمحصلة النهائية إشاعة الأمن داخل السجن.

ب-المعسكر الحربي

يفضل في التصميم المعماري للمعسكر الحربي الجمع بين الحياة المدنية والحياة العسكرية؛ وذلك لتقليل حالة التناشز التي يتعرض لها الجندي؛ وبهدف تسهيل التكيف مع هذه الحياة الجديدة، ينبغي أن تكون قاعات المنام صغيرة الحجم، بحيث تتسع لعدد لا يتجاوز (١٠) أشخاص؛ في محاولة لتقليل الضوضاء الصادرة من الحركة أو الحديث، على أن تتيسر لهذه القاعات مجموعة من الحمامات والمغاسل، ويفضل أن تكون على هيئة بناء واحد غير منفصل في وظائفه الخدمية.

كذلك يفضل في التصميم المعماري للمعسكر أن تكون ساحات التدريب بعيدة عن هذه القاعات؛ بهدف التخلص من مظاهر الحياة العسكرية لبعض الوقت، كما أن تبليط هذه الساحات ورصفها بالأسمنت مع إحاطتها بالأشجار على شكل سور يعد عاملاً مهمًا في جعل هذه البيئة مألوفة لدى الفرد.

ولإبعاد حالة النفور من ساحة التدريب، يفضل أن تستعمل فقط لأغراض إتقان المهارات العسكرية، تلك المهارات التي تكون من قبيل: إجادة استعمال السلاح وتفكيكه أو تكوين اللياقة البدنية لدى الجنود، أما المهارات العسكرية الأخرى التي لا يقتضي إتقانها في ساحة التدريب، فيفضل أن تكون في قاعة معدَّة للمحاضرات، وهذا يسهل بطبيعة الحال من فهم المهارة ومن ثم إتقانها على النحو المطلوب.

وفي أوقات الاستراحة، يفضل بعد أن تعرض الجندي إلى جهد وعناء، لا بد من إرسال موسيقى هادئة أو أغنيات مفضلة لإشاعة أجواء من الاسترخاء وخفض حالة الضيق المنتشرة بين صفوف الجنود عامة.

ولإتمام بنية المعسكر، لا بد من إشاعة الفضاءات الخضراء التي تحيط بقاعات المنام؛ بقصد دفع الجنود إلى قضاء أوقات الفراغ فيها، ومن الضروري أن تكون هناك مكتبة في منتصف المعسكر؛ وذلك لتشجيع بعض الجنود على ارتيادها والاستفادة من خدماتها، وتلك إحدى أنواع التسلية والترفيه التي يذيعها المعسكر بين صفوف الجنود.

ج- الملجأ

يهدف الملجأ بين ما يهدف إليه: توفير الحماية للأفراد من أذى الغارات الجوية أو القصف الصاروخي أو من أضرار الضربات النووية، فضلًا عن إشاعة الشعور بالأمان للأفراد الذين يقصدونه، وما يهمنا هنا أن التصميم المعماري للملجأ، لا بد أن يوفر بعض التسهيلات من قبيل: المرافق الصحية، ووجود خزانات للمياه الصالحة للشرب تكفي لعدد من الأيام؛ عندما تكون الأضرار الخارجية بليغة، أو صعوبة الخروج من الملجأ لأسباب فنية.

كذلك يراعى في التصميم وجود برَّادات في مكان مناسب من الملجأ يحفظ فيها الطعام، وذلك لحمايته من التلف لمدة زمنية معينة، كما ينبغي على المصمِّم الانتباه إلى متغير الجنس، فالموقف يقتضي هنا أن يكون هناك مكان لإيواء الذكور وآخر لإيواء الإناث؛ بقصد التغلب على حالة الإحراج والضيق الناشئة عن الحضور في مكان واحد.

إن مما يجب الإشارة إليه في هذا الصدد، أن فعالية الملاجئ لا تكمن في توفير الحماية من الأخطار المتوقعة فحسب، بل أيضًا تعمد إلى توفير الإسناد

الاجتماعي، ولا سيما للأفراد الذين لديهم مخاوف تزيد عن الحد الطبيعي، وهنا يبرز دور المؤسسة المعنية بالملاجئ؛ وذلك بتهيئة الملاك الذي يتولى الإسناد والإرشاد في الملجأ؛ بهدف إشاعة الطمأنينة بين الباحثين عنها.

التصميم المعماري للبيئة المزدحمة
وأثره على تنمية الأنماط السلوكية لدى الأطفال

من المفيد الإشارة هنا إلى أن البيئة المزدحمة قد تكون على هيئة منازل متداعية متفرقة في وسط العراء، إذ تفتقر إلى التسهيلات، وكذلك تفتقر إلى الشروط الصحية، أو قد تكون هذه البيئة على هيئة أحياء سكنية تشتمل على منازل صغيرة المساحة، شديدة التراصف، إذ تفتقر في الداخل إلى بعض التسهيلات، فضلًا عن معاناة الساكنين من الازدحام بنوعيه: التكدس والتزاحم، أو قد تكون هذه البيئة على هيئة عمارات سكنية تضم عددًا من الشقق، إذ تتكدس فيها أُسرٌ كبيرة الحجم.

في هذا السياق، نحاول تفصيل القول في الأنماط السلوكية المترتبة على العيش في هذه الأماكن لدى الأطفال.

العيش في منازل متداعية في وسط العراء

يلاحظ عن أماكن الإيواء هذه، أنها ليست بالمنازل السكنية المألوفة، وإنما هي عبارة عن منازل متداعية إن صحت التسمية، لجأ إليها بعض الأفراد اضطرارًا بعد أن انقطعت بهم سبل الحصول على السكن، هذه المنازل تتألف من غرفة نوم واحدة أو من اثنتين في حالات قليلة مع إضافة بعض التسهيلات إليها، ولقد شيدت هذه المنازل على أرض خلاء تعود ملكيتها إلى المؤسسات الرسمية أو إلى بعض الأفراد، وعادة ما تُستثمر هنا الحواجز المشيدة؛ وذلك لتقليل كلفة البناء.

وهنا نصل إلى مسألة لا بد من الإشارة إليها وهي: إن العيش وسط العراء في أماكن متداعية، يفضي إلى تنمية بعض الأنماط السلوكية السلبية لدى الساكنين، فضلًا عن تعرضهم إلى الأخطار الطبيعية، ويشكل الأطفال هنا

النسبة الكبيرة من الأسرة الإنجابية، وبذلك فإن الأطفال هم الفئة الاجتماعية الأكثر عددًا، وفي الوقت نفسه هم الفئة الأكثر تعرضًا للأخطار، وإذا نحن أجرينا مسحًا للأنماط السلوكية السلبية الناجمة عن العيش في هذه الأماكن، فضلًا عن أخطار الطبيعة التي يتعرض لها هؤلاء الساكنون، وجدنا:

١- إن النمو اللغوي للأطفال الذين يعيشون في هذه المنازل المتداعية عادة ما يتسم بالاضطراب من حيث التأخر في نطق المفردة اللغوية الواحدة، فضلًا عن قلة المحصول اللفظي، وإذا نحن تابعنا المحصول اللفظي للأطفال الذين يعيشون في هذه المنازل وجدنا أنه يتسم بالندرة؛ وذلك لكونه نتاج بيئة تعاني فقرًا واضحًا من حيث التنبيهات، وعند عقد مقارنة بين هؤلاء الأطفال وأقرانهم الذين يعيشون في منازل وسط أحياء سكنية تتوفر فيها التسهيلات، وجدنا أن المحصول اللفظي لأطفال الأحياء السكنية، ولا سيما الأحياء المخططة منها، أكثر ثراءً وغنى من أقرانهم الذين يعيشون في منازل متداعيه.

٢- بما أن المنازل المتداعية، تفتقر إلى التسهيلات، ومنها على وجه التحديد: التنبيهات التي يكون الطفل بحاجة شديدة إليها، ولا سيما في سنواته الأولى، فمن الطبيعي أن يؤثر ذلك على نموه المعرفي، والحقيقة أن النمو المعرفي يعتمد بالدرجة الأساسية على التنبيهات الموجودة في البيئة، فهي تزوده بالمعلومات اللازمة في ميدان معالجة الأحداث والأشياء المحيطة به، فضلًا عن تزويده بالمهارات الاجتماعية التي تساعده على انتقاء النمط السلوكي المناسب أثناء التفاعل مع المحيط الاجتماعي.

٣- إن الأطفال الذين يعيشون في منازل متداعية يكونون أكثر من غيرهم عرضة للتسرُّب من المدرسة، وإذا نحن بحثنا عن الأسباب التي تجعل هؤلاء الأطفال يتركون المدرسة مبكرًا، وجدنا أن الظروف المحيطة بالبيئة

السكنية تشجع على التسرب، ذلك أن بُعد المدرسة عن منازلهم يأخذ منهم يوميًّا جهدًا كبيرًا في رحلة الذهاب والإياب، إلى جانب شعورهم بعدم جدوى المدرسة بالنسبة لأحوالهم الحياتية المتداعية، وعلى ذلك فإن الأطفال في هذه المنازل يكونون أمام خيارين اثنين لا ثالث لهما: فإما الانتظام في الدراسة وتحمل التبعات المترتبة على ذلك، وإما التسرب منها وعدم العودة إليها، على أن هناك محرِّضات على التسرب ومنها على وجه التحديد: سوء الأوضاع المعيشية لأسر هؤلاء الأطفال وتدني المستوى الثقافي للوالدين، فضلًا عن غياب دافع الإنجاز الدراسي للأطفال، إن تفاعل هذه المحرضات من الممكن أن تدفع الأطفال إلى ترك المدرسة في هذه البيئة المتداعية.

٤- ومما يترتب على العيش في هذه المنازل المتداعية، عدم تمكن الطفل من تنمية السلوك الإقليمي Territorial وهذا يعود بطبيعة الحال إلى غياب ألفة المكان، مما يفضي بمرور الوقت إلى تكوين خبرات مشوشة وغير واضحة عنه، وبالمحصلة النهائية، تأخذ الخرائط الذهنية التي كوَّنها الطفل عن المكان الذي يعيش بين ظهرانيه بالضعف، ونتيجةً للضعف الذي يصيب هذه الخرائط، نتوقع استنادًا إلى الشواهد الواقعية أن يضعف السلوك الإقليمي لدى الطفل وبالتبعية يضعف إحساسه بحدوده المكانية في البيئة الطبيعية.

٥- لقد وُجد أن الأطفال الذين يعيشون في المنازل المتداعية، إنهم أكثر عرضة للأخطار الطبيعية مقارنةً بغيرهم، وهذه الأخطار تنحصر في برودة الشتاء وحرارة الصيف والأعباء المترتبة على هطول الأمطار، تلك الأعباء المتمثلة في تسرب المياه من السقف أو دخولها إلى فضاء غرفة النوم في أوقات النوم، مما يؤدي إلى تعرض الأطفال الراقدين إلى آلام بدنية، وربما يفضي هطول الأمطار إلى الوفاة، إن كانت كمية الأمطار كبيرة ولا تمكن

الأسرة من تقديم الإسعافات الأولية لبعض الأطفال المتضررين، ولعل الأخطر من ذلك، أن استمرار هطول الأمطار وبكميات كبيرة، مع ما يرافق ذلك من رداءة الطرقات، قد يعيق الوالدين من اتخاذ التدابير الصحية اللازمة، ومن الأخطار الطبيعية التي يتعرض لها الأطفال في مثل هذه المنازل، التعرض إلى العواصف والرياح شديدة الهبوب، وقد يترتب على ذلك أن يكتسب الأطفال بعض المخاوف من المؤثرات الطبيعية، وهذا يعني أن هذه الأجواء تسهم بدرجة كبيرة في عملية الإشراط conditioning وبالنتيجة، فإن الأطفال ما إن يشاهدوا بعض الإشارات الدالة على المؤثرات الطبيعية، حتى يستعيدوا عاداتهم الشرطية، التي تكونت بوجود المؤثرات الطبيعية، تلك العادات الشرطية المتمثلة في الارتجاف والارتعاش وفقدان السيطرة، مصحوبةً بتغيرات فسيولوجية من قبيل: زيادة عدد ضربات القلب وتصبب الجبين عَرَقًا واضطراب الرؤية وتغير لون الوجه، وأحيانًا يواجه الطفل الخائف بدرجة كبيرة صعوبة في إخراج الكلام.

ومما له دلالة في هذا الصدد أن هذه المخاوف، من المحتمل أن تأخذ مسارًا تطوريًّا لدى الأطفال، وربما تتحول إلى مخاوف مرضية، إن تُركت على حالتها الطبيعية من دون التدخل الأسري المباشر؛ بهدف التخفيف من حدتها.

٦- تشير الدراسات التي أجريت على الأطفال الجانحين، أن الجنوح يشيع بين الأطفال الذين يعيشون في منازل متداعية[٨] مقارنةً بأقرانهم.

وإذا نحن بحثنا عن الأسباب التي تجعل هؤلاء أكثر تعرضًا للجنوح من غيرهم، وجدنا أن غياب الطفل لساعات طويلة خارج المنزل، يعني غياب النموذج الذي ينمذج سلوكه وفقًا له، ولما كان النموذج غائبًا ولم يكن ثمة بديل في حياته يحل محله، فإن الطفل سيشكل سلوكه في الواقع استنادًا إلى

النماذج الموجودة في محيطه الاجتماعي، ولا سيما إذا كانت هذه النماذج منحرفة، لذا يصبح من السهل على الثللِ الجانحة أن تجتذبه إليها.

٧- لوحظ على الأطفال الذين يعيشون في المنازل المتداعية، أن آباءهم وأمهاتهم انصرفوا عنهم؛ بسبب الانشغال بسبل تدبير المعيشة، مما أدى إلى إهمالهم وعدم الاهتمام بهم من الناحية النفسية، وكانت نتيجة ذلك، أنهم كانوا أكثر من غيرهم تعرضًا للاضطرابات النفسية أو العقلية، ولعل سبب ذلك يعود إلى شعور هؤلاء الأطفال بالحرمان، وعدم التمتع بمباهج الحياة التي يحظى بها غيرهم عند مقارنة أوضاعهم الحالية بأوضاع الغير، مما يسبب لهم شعورًا بعدم الأهمية، فضلًا عن التعرض إلى خبرات مؤلمة أثناء التعامل اليومي مع الآخرين، وهو الأمر الذي يعني، أن الطفل سيعاني لوحده من بعض الاضطرابات النفسية أو العقلية التي يصعب على الغير ملاحظتها، وحتى في حال ملاحظة الوالدين مثل هذه الاضطرابات، فقد يصعب عليهم إيجاد تفسيرات منطقية لها، وأحيانًا تفسر على أساس أن طفلهما مشكل أو يصطنع بعض المشكلات النفسية.

الأخطر من ذلك، أن عدم إحاطة الطفل بالرعاية الوالدية، وهو لم يزل بعد في بداية الاضطراب، سيؤدي إلى تدهور أحواله الشخصية.

وسيكشف عن اضطراباته التي يعاني فيها بعديد من المظاهر السلوكية، ولعل من أبرزها: الاكتئاب، والحزن، والخمول، والتبول اللاإرادي، والصراخ أثناء الليل مصحوبًا بكوابيس، والاعتداء على الغير، والعزلة، والانطواء[٩].

وربما يتطور الأمر إلى الإدمان على بعض العقاقير أو استنشاق المواد الصحفية على سبيل المثال، بعد أن يلتقي بثلة من المنحرفين، إذ يُزينون له المتعة والتسلية والهروب من واقعه المؤلم بمجرد تعاطي مثل هذه المواد، وستكون

العاقبة زيادة في التدهور النفسي والعقلي بدرجة لافتة للانتباه.

العمارات السكنية

لقد بدأت مؤسسات الإسكان في بعض المدن العربية -وربما في أغلبها- منذ فترة ليست بالقصيرة بتشييد مجمعات سكنية عمودية، وذلك لتقليل الكلفة والوقت عند تشييد المجمعات الأفقية، فضلًا عن أن هذا النمط من الإسكان يشغل مساحات أقل بالمقارنة مع مجمعات الإسكان ذات النمط الأفقي، وإذا نحن تحرينا عن السبب الذي دعا إلى انتقاء هذا النمط من الإسكان، وجدنا أن الزيادة السكانية الحاصلة في المدينة العربية والهجرة إليه من المناطق الريفية، قد أوجد طلبًا متزايدًا على الوحدات السكنية الأفقية، فانتشرت في كل أرجائها هذه الوحدات بمساحات مختلفة، رافق ذلك غياب للضوابط والتشريعات التي تقلل من الهجرة إلى المدينة، وكانت العاقبة أن المخططين في المدينة العربية أخذوا يبحثون عن بعض الفضاءات أو المساحات التي لم تشغل بعد، أو أنها قيد الحجز لمؤسسة خدمية معينة تتهيأ أن توسع فيها خدماتها مستقبلًا، وقد نشأ من جراء ذلك شحة في المساحات المخصصة لبناء الوحدات السكنية، مضافًا إلى ذلك أن هناك طلبًا متزايدًا لهذه الوحدات سواء من المهاجرين إليها أو من الساكنين فيها، نتيجة انشطار الأسرة الواحدة وخروج الأبناء من منزل الأسرة الممتدة ومحاولة السكن في منزل مستقل؛ ولأن المسكن الحالي لم يعد يتسع للأسر الجديدة.

الأمر الذي أدى إلى نقص في الوحدات السكنية، وبمرور الوقت أحدث هذا النقص أزمة في الإسكان أخذت تعاني منه المدينة العربية عمومًا، ولإيجاد حل لهذه الأزمة التي أخذت تتفاقم بمرور الوقت، لجأت مؤسسات الإسكان إلى بناء وحدات سكنية عمودية، وذلك تقليلًا للكلفة والوقت، فضلًا عن أن هذا النمط من الإسكان يتيح للمخططين إقامة عدد كبير من الوحدات

السكنية في مساحات قليلة، غير أن هؤلاء في هذه المؤسسات كان جُلّ اهتمامهم التركيز على الطرق التي يتم من خلالها تخفيض الأزمة السكنية، ولم يركزوا على المشكلات التي قد تنجم عن هذا النمط من الإسكان عندما يشغله الساكنون.

نقول: إن هذا النمط من الإسكان عندما شغله الساكنون، تبين أنه غير مناسب للمدينة العربية، وثمة أدلة وشواهد تشير إلى ذلك، ولعل من أبرزها:

أ- إن السكن العمودي هو نتاج البيئات التي وجد فيها، وطالما أنه نتاج البيئات التي وجد فيه، فهو يعكس بطبيعة الحال تقاليد وأعراف الثقافة السائدة التي تدعو إلى عدم الاكتراث بالآخر والعزلة والانطواء وتجنب مواجهة الآخر وتقليل فرص التفاعل الاجتماعي، ولغرض تشجيع الفرد على التفاعل والاتصال بالآخر وتقليل العزلة الاجتماعية، فقد عمد المخططون في تلك البيئات إلى جعل الأبواب متقابلة مع تيسير ممر واحد يشترك فيه جميع الساكنين في المجمع السكني وتخصيص فضاءات خارج المجمع؛ لغرض إتاحة الفرصة للالتقاء والتحادث، مما يفضي في نهاية الأمر إلى تحقيق نوع من التفاعل الاجتماعي بين أفراد المجمع السكني الواحد، ولو تفحصنا الثقافة السائدة في المجتمع العربي، لوجدنا أنها تدعو إلى الاتصال بالآخر ومعاشرة الآخرين والاهتمام بهم عندما تستدعي الضرورة ذلك.

وما يهمنا هنا، أن الثقافة السائدة في المجتمع العربي، بالرغم من أنها تدعو إلى الاتصال والاهتمام بالآخر، فإن هذا النمط من البناء لا يتناسب مع أعراف وتقاليد هذه الثقافة؛ والسبب يعود إلى أن الأبواب المتقابلة واستخدام ممر واحد وسلم واحد وعدم تخصيص مساحة معينة بقصد التمتع بالمسافة الشخصية Personal Space والتي قد تنتهك بين اللحظة والأخرى، قد سبَّب

للساكن العربي ضيقًا ربما يفسره على أنه اعتداء من الآخرين على شخصه أو على أسرته، وعلى ذلك فإن النظرات التي يريها أحد الساكنين إلى الآخر دون أن يقصد بها سوءًا ربما يفسرها على أن تحرش بشخصه أو أنها تخدش حياء زوجه.

وربما تفضي مثل هذه النظرات التي لم ينتبه إليها مثل هذا الشخص إلى شجار ومن ثم إلحاق الأذى بأحد الطرفين أو بكليهما، وتشير الوقائع إلى أن بعض مشكلات الساكنين قد تنجم عن مثل هذا النمط من السلوك.

ب-إن الفرد في المجتمع العربي عمومًا، غير مهيأ للسكن العمودي، وهذا يعود بطبيعة الحال إلى عوامل تاريخية واجتماعية، فالإنسان العربي عاش في أبنية واسعة تتوفر فيها فضاءات تتيح له حرية التمتع بجمال الطبيعة وفي الوقت ذاته تمنع عنه انتهاكات الآخرين لخصوصيته الشخصية؛ ولذلك شاعت في المساكن المصممة على النمط الأفقي، أسيجة عالية تحجب نظرات الآخرين لأهل الدار وهم يزاولون نشاطاتهم المنزلية في فضاء الدار الخارجي، وهي إشارة واضحة على أن الإنسان العربي في مسكنه يهتم اهتمامًا كبيرًا في الحفاظ على خصوصيته الشخصية ومحاولة تحذير الآخرين من انتهاكه.

ووفقًا لهذا المنطق توصلت الدراسات، أن الفرد يشعر بالارتياح والاطمئنان كلما وجدت مسافة مناسبة تفصله عن الآخرين[١٠]. وثمة طرق شتى تتحقق بها هذه المسافة كاللجوء إلى تعلية أسيجة المنازل وغلق بعض المنافذ لئلا أن يرى الآخرون أهل الدار، وثمة سبب آخر يجعل من السكن العمودي غير مناسب للفرد في المجتمع العربي ألا وهو أن الفرد في المجتمع العربي قد كوّن اتجاهات سلبية نحو: السكن العمودي، تنطوي على النفور وعدم التفضيل، فضلًا عن كونه مكانًا يجلب الانحراف والرذيلة، واستنادًا إلى ذلك صارت الوحدات السكنية المشيدة على النمط العمودي غير مفضلة لدى

الكثير من الأفراد.

ج- يتأثر السكن العمودي بالمستوى الاجتماعي الاقتصادي لساكنيه، فلقد لوحظ أن الساكنين من المستوى الاجتماعي الاقتصادي المتدني يفضلون المسكن المستقل وإن كان ضيقًا على السكن العمودي، بسبب أن هذا النمط من السكن يقيد حركتهم ويحد من مزاولة نشاطاتهم المعتادة، وإن زاولوا بعضًا منها، فقد تحدث ضوضاء ينجم عنها إزعاجٌ للساكنين، مما يؤدي إلى تذمر واستياء هؤلاء، وقد يترتب على ذلك بعض المشكلات، تأتي في مقدمتها: العداوة والكراهية والنفور ومحاولة الإيذاء عند مرور أحدهم من الممر المشترك أو من الباب الرئيسي للمجمع السكني أو الوقوف عند باب الشقة ومحاولة إسماع الآخرين بعض الألفاظ النابية.

وإذن، فإن السكن العمودي غير مناسب بالمرة لأفراد المستوى الاجتماعي الاقتصادي المتدني، لا بسبب فقرهم أو عوزهم، بل بسبب فقر مهاراتهم الثقافية، فضلًا عن زيادة أعدادهم، ويمكن القول بكل ثقة: إن السكن العمودي قد يكون ملائمًا لأفراد المستوى الراقي وبعض أفراد المستوى المتوسط في المدينة العربية؛ وذلك لقلة عدد أفراد أسرهم، وارتفاع مستواهم الثقافي، الأمر الذي يجعلهم قادرين على معالجة المشكلات المترتبة عن هذا النمط من السكن بحكمة ورويّة.

د- إن الوحدات السكنية المشيَّدة على النمط العمودي في البيئة العربية لم يُرَاعَ فيها حالة المناخ، فالمناخ السائد في البيئة العربية عمومًا حارٌّ جافٌّ صيفًا وبارد ممطر شتاءً[١١]، والواقع أنه ليس ثمة عائق أو صعوبة أمام السكان في الأشهر الباردة في هذا النمط من السكن، ولكن الصعوبة تكمن في الأشهر الحارة، لا سيما أن هذه الأشهر في بعض المدن قد تكون أطول من الأشهر الباردة، فضلًا عن ارتفاع درجة الحرارة أكثر من معدلاتها

الطبيعية في بعض الأحيان مع هبوب عواصف ترابية، مما يستدعي أن يبقى الساكنون في هذه الوحدات وعدم الخروج منها. وهذا يعني أن ثمة خدمات لا بد من توافرها، لعل من أبرزها، استمرار التيار الكهربائي على مدار الأشهر الحارة بلا انقطاع، وهو الأمر الذي لا يمكن التنبؤ باستمراره.

وإزاء ذلك، فإن الساكن أيام القيظ الحار سيشعر بحالة من الضيق عند انقطاع التيار الكهربائي، الأمر الذي يؤدي بالساكنين إلى اللجوء إلى بعض منافذ الوحدة السكنية، ومنها النوافذ المطلّة على الشارع أو الأبواب أو الممرات الفاصلة بين الشقق السكنية، في محاولة لالتماس البرودة، ومما نخشاه أن ارتفاع درجات الحرارة مع هبوب عواصف ترابية وانقطاع التيار الكهربي عن الوحدات السكنية قد يعد محرضًا على حدوث مشاجرات أو خلافات على أقل تقدير بين الزوج وزوجه أو بين الفرد وأسرته، وربما تتطور هذه الخلافات إلى ما لا يحمد عقباه.

وتأسيسًا على ما سبق، يمكن القول: إن السكن العمودي في عموم البلاد العربية لا يتناسب مع الخصائص الاجتماعية للساكن إلى جانب عدم ملاءمته للظروف البيئية، ولأنه كذلك، فقد تشكلت لدى الأطفال نتيجة العيش في وحدات هذا النمط من السكن بعض الأنماط السلوكية السلبية، وفي هذا السياق نشير إلى ما يأتي:

١- إن الشقة السكنية عادة ما تكون صغيرة المساحة، وبطبيعة الحال، إن صغر المساحة سيقيد من حركة الأطفال، إذ لا تتيح لهم حرية التحرك واللعب واستكشاف المكان؛ بقصد تكوين خرائط ذهنية واضحة عنه، وبذلك فإن صغر المساحة، يعد قيدًا على حركة الأطفال في تفريغ طاقاتهم الزائدة، وحتى يفرغوا هذه الطاقات، فإن الأمر يقتضي أن تكون هناك فضاءات يمارسون فيها ألعابًا مختلفة.

٢- ومما يترتب على تقييد حركة الأطفال ضمن مساحة محددة، اضطرارهم النزول إلى الفضاءات الموجودة خارج العمارات السكنية، في محاولة للعب مع جماعة في أعمارهم ومما يزيد الأمور تعقيدًا أن هؤلاء الأطفال الذين يلتقون بهذه الجماعة ربما يعاني بعض أفرادها من اضطرابات سلوكية، وقد يفضي ذلك، ببعض الأطفال إلى نمذجة عددٍ من هذه الاضطرابات، في غياب واضح لسلطة الوالدين.

٣- ولعل من الآثار النفسية المترتبة على السكن في العمارات السكنية، قلة التنبيهات الثقافية التي يتعرض لها الأطفال، ولا سيما إذا كانت هذه العمارات تقع في حي سكني يتسم بالتخلف والبؤس، وربما تفضي محدودية التنبيهات الثقافية إلى تأخر النمو المعرفي مقارنةً بأطفال آخرين يعيشون في أحياء سكنية تتمتع بثراء واضح في تنبيهاتها الثقافية.

٤- وقد يترتب على عزل الأطفال في مساحة ضيقة شعورهم بالضيق، وقد يتطور الأمر إلى حالة اكتئاب تلازم بعض الأطفال لفترة زمنية، ولا سيما أولئك الذين لديهم الاستعداد للإصابة بهذا الاضطراب إن لم تكن هناك وسائل مناسبة لقضاء أوقات الفراغ.

٥- يتسم سلوك الأطفال الذين ترعرعوا في شقة سكنية بالخشونة والقسوة[١٢]؛ ولعل ذلك يعود إلى التغير الحادث في جماعات الأقران الذي يفضي إلى ضعف الألفة في مواقف تتسم بالانسجام والتعاون. وربما يعود سبب الخشونة أو القسوة التي تظهر في سلوك هؤلاء الأطفال إلى الوالدين حصرًا، إذ يعمدان إلى عزل أطفالهما عن الأقران وعدم إتاحة الفرصة للتفاعل معهم؛ وذلك لحمايتهم من أذى الطريق؛ فضلًا عن سهولة ملاحظة التصرفات الصادرة عنهم، وربما يعود سبب الخشونة إلى سعي الأطفال لتصريف طاقاتهم الزائدة مع أول مجموعة يلتقون بها، وقد يسفر

هذا اللقاء عن إظهار شيء من الخشونة والقسوة.

الأحياء السكنية المزدحمة

إن نوعية المنزل وصلاحيته للسكن يعتمد على جملة معايير، وفي هذا الصدد يمكن أن نوجزها على النحو الآتي:

١- نوع المنطقة السكنية من حيث كونها مزدحمة أو أقل ازدحامًا هي المنطقة المرغوبة في السكن، وعلى ذلك فإن نوعية المنزل تتحدد استنادًا إلى المنطقة السكنية التي يقع فيه، إلى جانب ابتعادها عن مصادر الضوضاء والخطر.

٢- مساحة المنزل تحدد هي الأخرى نوعيته وصلاحيته للسكن، فالمساحة الكبيرة تبعث إحساسًا بالراحة لدى الساكنين؛ لذا فإن المساحة الكبيرة تجعل المنزل أكثر مرغوبية.

٣- كفاية غرف النوم داخل المنزل، وهذا المعيار ينبغي مراعاته عند تحديد نوعية المنزل، إذ إن كفاية غرف النوم تجعل المنزل أكثر مرغوبية من جانب الساكنين.

٤- وجود بعض التسهيلات داخل المنزل من حيث توفر الحديقة ومكان واسع لاجتماع أفراد الأسرة وأماكن للتهوية وللتبريد وسهولة تدفئته في الشتاء، وتوفر عدد من الأماكن التي تساعد الفرد داخل المنزل على إشباع حاجاته البيولوجية من قبيل: التخلص من الفضلات، والاستحمام، إلى جانب توفير المنزل لساكنيه التمتع بقدر من الخلوة الشخصية.

إن غياب هذه المعايير، يفضي بطبيعة الحال، إلى خفض نوعية المنزل، وكذلك خفض صلاحيته للسكن، مما يترتب على ذلك، خفض نوعية الحياة في داخله وهذا يعني جملة: إن الساكنين ومنهم الأطفال على وجه التحديد

سيتعرضون إلى بعض المشكلات النفسية، وبهدف معرفة هذه المشكلات التي يتعرض لها الأطفال جراء السكن في هذه البيئة المزدحمة، نستعرض هنا أهمها:

١- لقد وجد أن ثمة تأخرًا واضحًا في النمو المعرفي لدى الأطفال الذين يعيشون في البيئة المزدحمة، وهذا التأخر يعود إلى أسباب عديدة، ولعل من أبرزها افتقار هذه البيئة إلى التنبيهات التي تنمي مدركات الأطفال عن العالم المحيط بهم، كذلك فإن الضوضاء التي تعُجّ بها هذه البيئة والتكدس داخل منازل ضيقة لا يسمح للنمو المعرفي أن يبلغ أعلى مستوياته، ولعل من المفيد الإشارة هنا إلى أن إحدى الدراسات حاولت أن تختبر الفرضية القائلة: إن الأطفال الذي يفدون من منازل تعج بالضوضاء يكون تعلمهم لمهمة إدراكية معينة أبطأ من أقرانهم الذي يفدون من منازل هادئة، ولاختبار هذه الفرضية، اقتضى الأمر سحب عينة من الأطفال؛ ولأن الفرضية تنطوي -بين ما تنطوي- على منازل تتسم بالهدوء وأخرى تعج بالضوضاء، فقد اقتضى تقسيم العينة إلى مجموعتين:

فأما الأولى: فهي المجموعة التي تضم الأطفال الوافدين من المنازل الهادئة، وأما المجموعة الثانية، فهي تضم الأطفال الوافدين من المنازل التي تعج بالضوضاء، ثم بعد ذلك وزع على الأطفال مجموعة من الصور، ولقد عمد الباحث إلى جعل بعض الصورة متشابهة من حيث الشكل، ومجموعة أخرى مختلفة من حيث شكلها، وطلب منهم وضع كل صورة مع مثيلاتها، وبعد تحليل النتائج، ظهر أن الأطفال الذين وفدوا من المنازل التي تعج بالضوضاء، استغرقوا وقتًا طويلًا في وضع كل صورة مع مثيلاتها[١٣].

وهذا يعني حقيقة أن مستوى الأداء لهؤلاء الأطفال كان بطيئًا، وهو الأمر الذي جعلهم يستغرقون وقتًا أطول في إنجاز المهمة مقارنةً بأقرانهم.

وهنا نصل إلى مسألة لا بد من الإشارة إليها: وهي أن الضوضاء الحادثة في البيئة، تعمد إلى تشتيت انتباه الأطفال وعدم تركيزه على المنبه -الهدف، وهو الأمر الذي يجعل الطفل في حالة من التشتت وعدم التركيز، بالرغم من الضغوط التي يتعرض لها لجذب انتباهه إلى المنبهات- الهدف، وهذا ما يجعل حقيقة مهمة التعلم عسيرة في الصف الدراسي في البيئة المزدحمة.

وتأسيسًا على ما سبق، تغدو البيئة المزدحمة والمليئة بالضوضاء عاملًا يعمد إلى خفض مستوى النمو المعرفي.

٢- تشير الدراسات، أن قدرة الطفل على تخيل الفراغات تتأثر بالمسافة التي يقطعها أثناء الذهاب إلى المدرسة.

فلقد وجد أن المسافات الطولية تفضي إلى ضعف قدرة الطفل على تخيل الفراغات المكانية، وعند تقصي السبب، وجد أن البيئات المزدحمة تستغرق فيها رحلة الذهاب إلى المدرسة مدة زمنية تصل إلى أكثر من (٢٠) دقيقة، وأحيانًا تصل إلى (٤٥) دقيقة[١٤].

إن من البين الواضح أن أداء العمليات العقلية العليا يعتمد على جملة عوامل، ولعل من أبرزها:

١- حالة الصفاء الذهني.

٢- الراحة البدنية أثناء أداء العمليات العقلية.

٣- نوع التنبيهات التي يتعرض لها الفرد.

والآن نفصل القول في هذه العوامل:

فأما العامل الأول، فإن الضوضاء التي تعج بها البيئة المزدحمة، تجعل من العسير على الطفل أن ينمي العمليات العقلية العليا، ومنها القدرة على تخيل الأحداث والأشياء المحيطة به. وحقيقة الأمر أن تخيل الفراغات المكانية

يقتضي بين ما يقتضي، صفاءً ذهنيًّا يوفر له فرصة للتأمل، ومن ثم مساعدته على تخيل عالمه المحيط به، وأما العامل الثاني، فإن الرحلة الطولية التي يقطعها يوميًّا في الذهاب إلى المدرسة والعودة إلى المنزل، تأخذ منه جهدًا كبيرًا، ولما كانت هذه الرحلة تنطوي على جهد، فمن الطبيعي والحال هذه أن تضعف قدرته على تخيل الفراغات المكانية.

وفيما يتصل بالعامل الثالث، المتعلق بنوع التنبيهات، نقول: إن التنبيهات التي يتعرض لها الطفل في هذه البيئة، هي تنبيهات بسيطة للغاية، ولا تصل إلى مستوى الاستثارة المطلوبة، ولما كانت كذلك فإن قدرة الطفل على التخيل بالتبعية لا تصل إلى أعلى مستوياتها.

٣- لعل من الآثار النفسية المترتبة على العيش في بيئة مزدحمة، انخفاض الإنجاز الدراسي لدى الأطفال بصورة ملحوظة.

ويعد التسرب من الدراسة، أحد المؤشرات الدالة على هذا الانخفاض، فلقد سجلت المدارس في المناطق المزدحمة معدلات عالية في التسرب المدرسي[١٥]. وطبقًا لتقرير اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا لعام ١٩٩٧، بلغت نسبة التسرب في بعض البلدان، ومنها مصر، على سبيل المثال بين (٢٠٪ - ٣٠٪) في المدارس الواقعة في الأحياء المزدحمة[١٦]. في حين بلغت في مدارس الأحياء المزدحمة في الأردن بحدود (٤٠٪)[١٧].

وإذا تتبعنا هذه النسبة في أقطار أخرى مثل اليمن، نجد أن الحال لا يحسد عليه، إذا بلغت في مدارس هذه المناطق (٥٠٪)[١٨] أو تزيد، بالرغم من أن هذه النسبة لا تعكس حقيقة تدني الوضع التربوي هناك، ولا سيما في الأحياء المزدحمة، ومع ذلك فإن هذه النسب تشير إلى أن ثمة ضعفًا في دافعية الأطفال نحو التعلم، ولعل خطورة التسرب تكمن في أنه يهيئ الطفل للجنوح.

إذا نحن أمعنا النظر في مدارس هذه المناطق، وجدنا أنها أصبحت طاردة أكثر من كونها جاذبة. وهنا يبرز دور التصميم المعماري كونه أحد العوامل التي أضعفت فاعلية المدارس في هذه الأحياء، ولو أجرينا حسمًا لتصاميم المدارس في الأحياء المزدحمة، وجدنا أنها تدعو إلى التسرب، بل إنها لا تشجع الطفل على الالتزام بمطالبها وواجباتها، فقد غدت حافلة بالتنبيهات الدالة على النفور، ابتداءً من ساحة المدرسة وانتهاءً بقاعة الدرس، فالصفوف الدراسية قد ازدحمت بأعداد التلاميذ بأكثر من طاقاتها الاستيعابية، ولا سيما في مرحلة الدراسة الابتدائية[١٩]. فلقد وصل معدل كثافة الصف الدراسي الواحد إلى (٤٥.١) تلميذًا في مصر عمومًا[٢٠]. بينما بلغ معدل كثافة الصف الدراسي في المدارس الابتدائية في اليمن إلى (٦٠) تلميذًا[٢١] وفي أحيان أخرى، تصل الكثافة إلى أكثر من (٦٠) تلميذًا، وبموجب الكثافة العالية في هذه الصفوف، فمن المتوقع أن تكون مكانًا غير مناسب بالمرة لأن يقضي فيه التلميذ وقتًا قرابة نصف النهار، وهو يؤدي فيه عملية التعليم.

والمعروف أن نجاح عملية التعلم تعتمد على جملة أمور منها: الظروف الفيزيقية المحيطة بالمتعلم؛ ونقصد بالظروف الفيزيقية هنا، أن تكون الصفوف الدراسية ملائمة لتقلبات الأجواء المناخية وأن تتيسر مقاعد للجلوس تشعره بالارتياح طوال مدة الدرس، كما يجب أن تكون هذه المقاعد متناسبة مع مستوى النظر إلى السبورة، فضلًا عن تيسر بعض التقنيات التربوية.

ولعل الاهتمام بساحة المدرسة، يعد عاملًا مهمًّا، لا بد من مراعاته في عملية التصميم المعماري. فلقد وجد أن ساحات هذه المدارس تفتقر إلى معدات اللعب البسيطة وخالية من المزروعات، مما يجعلها طاردة للتلاميذ أكثر من كونها جاذبة لهم، ولو خططت هذه الساحات ونظمت بطريقة معينة؛ لأصبحت أكثر جاذبية وأدعى إلى الإقبال عليها؛ وذلك للتمتع بمعداتها

وأجوائها، مما يتوجب على هؤلاء التلاميذ قضاء الساعات الدراسية في المدرسة، وبذلك أبعدناه إلى حد ما عن الجنوح.

٤- ومن الآثار النفسية المترتبة على العيش في أماكن مزدحمة، إضعاف المهارات الاجتماعية للطفل. بات واضحًا أن الطفل يأتي إلى الدنيا وهو كائن بيولوجي لا اجتماعي، بيد إنه يصبح كائنًا اجتماعيًّا بفعل عمليات التعلم الاجتماعي الحادثة في الثقافة التي يعيش بن ظهرانيها، ولعل المهارات الاجتماعية Social Skills تعد إحدى هذه العمليات، فلقد وجد أن إجادة المهارات الاجتماعية تمكن الطفل من أن يكون متوافقًا مع محيطه الاجتماعي، فضلًا عن شعوره بالكفاءة بين زملائه الذين يشاركونه التنظيم الاجتماعي، على أن إجادة هذه المهارات، إنما يعتمد بالدرجة الأساسية على علمية التدريب التي يتبعها الوالدان، إلى جانب ملاحظته أثناء تأديته لهذه المهارات، بهدف تعزيز الصائب من المهارات عندما يؤديها بشكل صحيح والتنبيه إلى الأخطاء عند أدائه للمهارة بشكل خاطئ، وكل ذلك يتم في حالة وجود اتصال مستمر بين الوالدين والطفل، أما في حال انقطاع الاتصال الحادث بين الطرفين، يصبح من المتعذر على الطفل أن يلم بتفاصيل المهارات الاجتماعية المطلوبة، مما يفضي إلى اكتسابه مهارات اجتماعية غير سوية، أي مهارات شاذة عن السوية الاجتماعية[٢٢].

وهنا نصل إلى مسألة لا بد من الإشارة إليها، وهي أن المنزل الذي يتكدس فيه الأفراد لا يتيح مجالًا للوالدين لتنمية مثل هذه المهارات لدى الطفل، كما أن وجود الطفل في منزل مزدحم بعدد من الأفراد، ولا سيما الكبار منهم، الذين نال منهم التعب الشيء الكثير، يفضي إلى عدم التركيز على هذه المهارات، وبالمحصلة النهائية، يؤدي ذلك إلى جملة من المشكلات النفسية.

الهوامـــش

(1) J. Lamberth. Social Psychology. (New York: Mac Millan Publishing company, 1980), P. 522.

I. Altman. Crowding: Historical and contemporary trends in crowding research. in: A. Baum and Y.M.Epstien. Human response to crowding. (New York: Johan Willey and Sons, 1978), P. 18

(2) E. Sundstrom. crowding a sasequential process: Review of research on the effect of population density on Humans. in: Baum and Eptein, 1978, P. 32

(3) K.D. Harries. Crime and the Environment. (Illinois: Charles c Thomas. Publishers, 1980), P. 34

(٤) فاضل عبد اللطيف المالح. الكثافة والاكتظاظ في المناطق السكنية. (بغداد: جامعة بغداد، رسالة ماجستير غير منشورة، ١٩٩٩)، ص ١١٠.

(٥) المصدر نفسه، ص ١١٠.

(٦) المصدر نفسه ص ١١٠.

(7) E. Sundstrom. Physical Environment and interpersonal behavior, in: L.S. Wrights man and R. Deaux. Social Psychology in the 80's, 3rd ed. (California, Brooks/ cole publishing company Monterey, 1981), P. 530.

(٨) محمود شمال حسن. سيكولوجية الفرد في المجتمع. مدخل، ط١. (القاهرة: دار الآفاق العربية، ٢٠٠١)، ص ٣٦٢.

(٩) محمود شمال حسن. وضعيات السلوك البشري أثناء وقوع الكارثة وما بعدها. الموقف الثقافي، السنة ٤، العدد ٢٤. (تشرين الثاني- كانون الأول، ١٩٩٩)، ص٣٧.

(10) R.D. Middlemist and E.S. Knowls. Personal Space invasions in the Lavatory: suggestive evidence for arousal. Journal of Personality and Social Psychology. Vol. 33, No. 5, 1976, p. 544-545.

S. Albert and J.M. Dabbs. Physical distance and Persuasion. Journal of Personality and social psychology. Vol. 15, No. 3, 1970, p. 269.

(١١) خالد السلطاني. حديث في العمارة. (بغداد: دار الشئون الثقافية العامة، سلسلة الموسوعة الصغيرة، ١٩٨٥). ص ٨٦.

(١٢) شاكر سعيد ياسين. إشكالية مجرم- مجتمع- مكان: دراسة تخطيطية في تحليل المناطق الاجتماعية. (بغداد: جامعة بغداد، رسالة ماجستير غير منشورة، ٢٠٠٠)، ص٦٥.

(13) E.M. Hetherington and R.D. Parke. Child psychology: A contemporary view point, 3rd ed. (New York: McGraw – Hill book company, 1986), p. 515.

(١٤) هدى عبد الرحمن الشيال: الطفل والإدراك البصري في الفراغات العمرانية: دراسة ميدانية بالقاهرة لأطفال المرحلة الإعدادية. مجلة الطفولة والتنمية، المجلد١، العدد ٣، (خريف، ٢٠٠١)، ص ٣٤.

(١٥) حسن..... سيكولوجية الفرد في المجتمع: مدخل، ص ٣٦٣، على بوعناقة. الأحياء غير المخططة وانعكاساتها النفسية - الاجتماعية على الشباب: دراسة ميدانية مقارنة في مدينة جزائرية. المستقبل العربي. السنة ١٣، العدد ١٤٥، (آذار/ مارس، ١٩٩١)، ص ١٠٢.

(١٦) اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا. أثر سياسات الاقتصاد الكلي والسياسات الاجتماعية على الفقر: حالة الأردن ومصر والجمهورية اليمنية. (نيويورك: الأمم المتحدة، ١٩٩٧)، ص ٩٤.

(١٧) عبد الرازق فارس الفارس. الحكومة والفقراء: من يستفيد من الإنفاق العام؟ المستقبل العربي. العدد ٢٢٥. (١٩٩٧)، ص ٨٢.

(١٨) اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا، ص ٩٨.

(١٩) محمود شمال حسن. العلاقة بين تصميم البيئة في المدينة العربية والسلوك العدواني. شئون عربية. العدد ١٠٨. (كانون الأول- ديسمبر، ٢٠٠١)، ص ١٧٢.

(٢٠) اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا، ص ٩٨.

(٢١) المصدر نفسه، ص ٩٧.

(٢٢) محمود شمال حسن. صغار في أزمة: دراسة الآثار النفسية المترتبة على تعرض الصغار إلى الأزمة الاقتصادية، دراسات في الأمن الاجتماعي (بغداد). السنة ١، العدد ١، (٢٠٠١)، ص ٧٤.

دراسة مقارنة
في الخصائص النفسية
بين المتسربين من الدراسة
وأقرانهم

المقـــدمـــة

لقد ركَّزت الدارسات التي تناولت ظاهرة التسرب الدراسي على الأسباب المؤدية إليه، ولا سيَّما الأسباب الاقتصادية والاجتماعية منها على وجه التحديد أكثر من تركيزها على الخصائص النفسية التي يتصف بها التلميذ المتسرب من الدراسة، وهذا التركيز كله ينطلق من الرأي القائل: إن التسرب الدراسي هو نتاج الظروف الاقتصادية والاجتماعية، بَيْدَ أنَّ هذا الرأي يُعْوِزُه دراسة الخلفية النفسية للمتسرب من الدراسة؛ بهدف تكوين تصور واضح عن الظاهرة التي أخذت تشيع بدرجة ملحوظة. وفي الدراسة الحالية، سوف يتم التركيز على الخلفية النفسية للتلميذ المتسرِّب من الدراسة، تلك الخلفية التي تتمثل في الخصائص النفسية التي يتميز بها عن أقرانه الذين يواصلون الدارسة.

الخلفية النظرية للتسرب الدراسي

الخصائص النفسية للتلميذ المتسرب من الدراسة

إنَّ المتتبع للصحيفة النفسية Psychological Profile للتلميذ المتسرب من الدراسة يجدها تختلف كلَّ الاختلاف عن الصحيفة النفسية للتلميذ الاعتيادي الذي يواصل مسيرته الدراسية بشكل منتظم، ولو تفحصنا هذه الصحيفة نجدها تشتمل على عدد من الخصائص النفسية، وفي هذا السياق نشير إلى أهم تلك الخصائص:

١ - تشير الدراسات التي أُجريت في هذا الصدد، إلى أن انخفاض الإنجاز الدراسي يعد إحدى الخصائص النفسية التي يتمتع بها التلميذ المتسرب من الدراسة[1].

وإذا نحن تحرينا عن أسباب انخفاض الإنجاز الدراسي لدى التلميذ المتسرب من الدراسة، وجدنا أن بعض هذه الأسباب يعود إلى غياب التشجيع الوالدي في الحث على التعلم؛ ولعل غياب التشجيع الوالدي قد أضعف بدوره دافع التعلم، وإضعاف دافع التعلم يعني بين ما يعني أن ثمة عدم اهتمام بالدراسة، وهذا يؤدي بالنتيجة النهائية إلى النفور منها.

وهنا تكمن الخطورة! إذ إن نفور التلميذ من الدراسة، يعني أنه مُهَيّأ لتركها في أي وقت، شريطة أن تكون هناك بعض المحرِّضات التي تستثيره على تركها، تلك المحرِّضات التي تكون من قبيل: التفكك الأسري، والعمل خارج أوقات الدوام المدرسي، وصعوبات دراسية يعاني منها جرَّاء عدم فهمه لبعض المواد الدراسية، وكذلك شعوره بعدم التقبل من جانب زملائه في المدرسة، إلى جانب أن ثمة رفاقًا آخرين له في الحي السكني أو في المدرسة نفسها يشجعونه على ترك المدرسة والانصراف إلى العمل والاهتمام به؛ وذلك

تحقيقًا للأهداف التي يصبو إليها، كما أن هناك أسبابًا أخرى لانخفاض الإنجاز الدراسي للتلميذ المتسرب، تلك الأسباب التي تتعلق بالاتجاهات الوالدية نحو الدراسة؛ فلقد تبيَّن من الشواهد الميدانية، أن الاتجاهات السلبية التي يحملها الأَبَوَان نحو الدراسة، قد تسهم في إضعاف دافع التعلم لدى الطفل؛ وذلك يرجع -أساسًا- إلى أن هذه الاتجاهات اكتُسبت عن طريق الاقتران الشرطي، أي: اقتران الدراسة بصفات سلبية، مما يُفضي بمرور الوقت إلى تكوين استجابة شرطية، مفادها: كراهية الدراسة والنفور منها.

إذن فإن غياب التشجيع الوالدي في الحث على التعلم، فضلًا عن الاتجاهات السلبية التي يحملها الأبوان نحو الدراسة، قد يفضي إلى ضعف الإنجاز الدراسي لدى التلميذ، وقد يؤدي ذلك بالنتيجة النهائية إلى كراهية المدرسة.

٢- لقد وُجِد أن التلميذ المتسرب من الدراسة يعيش في أجواء أسرية يسودها التوتر والخلاف وعدم التفاهم.

والحقيقة أن المناخ الأسري المضطرب يُعرِّض التلميذ إلى القلق؛ وهذا بدوره يعطل لديه العمليات العقلية التي يعتمد عليها الإنجاز، فيصبح عرضة للنسيان، أي: عدم قدرة ذاكرته على الاحتفاظ بالأفكار أو المعلومات المطلوبة، إلى جانب عدم قدرة ذاكرته على استدعائها في الوقت المناسب، كما يفقد الفرد -نتيجة تعرضه للقلق الناشيء؛ جراء الخلافات والمشاحنات الأسرية- القدرة على ترتيب أفكاره في ذهنه[٢]، وهو الأمر الذي يزيد من تشتت انتباهه وعدم قدرته على التركيز، ومثل هذه الأجواء ربما تجعله عرضة لترك الدراسة في وقت مبكر أكثر من غيره الذين يعيشون في أجواء أسرية مستقرة.

٣- كما لوحظ أن التلميذ المتسرب من الدراسة يَفِدُ من بيئة تعاني من الفقر

والبؤس، مما يفضي إلى ترك الدراسة مبكرًا والانخراط في سوق العمل، في محاولة لمساعدة أسرته في سد بعض احتياجاتها المعيشية.

نشير في هذا السياق إلى أن الدراسات التي أُجريت على المتسربين من الدراسة، كشفت أن الغالبية منهم يفدون من بيئات فقيرة، فلقد وُجِد أن (٣٧.٥٪) من هؤلاء المتسربين على مستوى البلاد العربية، كانوا ينتمون إلى المستوى الاجتماعي الاقتصادي المتوسط، بينما تنتمي البقية إلى المستوى الاجتماعي الاقتصادي المتدني[٣]. كما توصلت المُسوحات التي أجريت في البلاد العربية إلى نتيجة مماثلة أيضًا؛ إذ وجدت أن أغلب الأطفال الذين لم يكملوا تعليمهم الدراسي، كانوا من أسر تنتمي إلى المستوى المتدني[٤].

إن من البيِّن الواضح أن ظروف العسر الاقتصادي لأسرة المتسرب لا تتيح له فرصة المتابعة للمعرفة، فضلًا عن غياب التشجيع على مواصلة الدراسة، مما يفضي إلى التنفير منها وعدم الحث عليها.

والمحصلة النهائية أن التلميذ قد يجد الأجواء مهيأة لترك الدراسة والانضمام إلى إحدى الثُّلل الجانحة أو احتراف مهنة معينة.

٤- من المفيد الإشارة هنا إلى أن المدارس في الأحياء المزدحمة، أخذت تؤدي دورًا هامشيًّا؛ مما ترتب على ذلك أنها فقدت دورها التربوي، ومن ثَمَّ عجزت عن تشكيل سلوك أبنائها بما يتناسب والفلسفة التربوية السائدة، وأن ثمة مؤشرات تثبت هذا الرأي؛ فلقد سجلت مدارس هذه الأحياء معدلات عالية في التسرب من الدراسة[٥]، وطبقًا لتقرير اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا لعام ١٩٩٧، بلغت نسبة التسرب بين (٢٠- ٣٠٪) في هذه الأحياء بمصر[٦]، وفي الأردن بلغت حدود (٤٠٪)[٧]، بينما وصلت هذه النسبة في اليمن إلى (٥٠٪)[٨]، وهي نسبة عالية إذا قُورِنت بنسب التسرب في مدارس

البلاد العربية الأخرى.

وإذا نحن بحثنا عن الأسباب التي تجعل مدارس هذه الأحياء مشجِّعة على التسرب وجدنا أن تصميم البيئة المدرسية في هذه الأحياء يعد أحد العوامل التي أضعفت فاعلية المدرسة. ولو أجرينا مسحًا لتصاميم المدارس في هذه الأحياء المزدحمة وجدنا أنها تدعو إلى التسرب، بل إنها لا تشجع التلميذ على الالتزام بمطالبها وواجباتها. فقد غدت حافلة بالمنبهات التي تدعو إلى النفور، ابتداءً من ساحة المدرسة وانتهاءً بقاعة الدرس؛ فالصفوف الدراسية قد اكتظت بأعداد التلاميذ بأكثر من طاقاتها الاستيعابية، ولا سيَّما في مرحلة الدراسة الابتدائية؛ فلقد وصل معدل كثافة الصف الدراسي الواحد إلى (٤٥.١) تلميذ في مصر عمومًا[٩]، بينما بلغ معدل كثافة الصف الدراسي في المدارس الابتدائية باليمن إلى (٦٠) تلميذًا[١٠]، وبموجب الكثافة العالية في هذه الصفوف، فمن المتوقع أن تكون مكانًا غير مناسب بالمرة لأن يقضيَ فيه التلميذ وقتًا قرابة نصف النهار وهو يؤدي فيه عملية التعلم.

والمعروف سلفًا أن نجاح عملية التعلم تعتمد على جملة أمور منها:

الظروف الفيزيقية المحيطة بالمتعلم؛ ونقصد بالظروف الفيزيقية هنا أن تكون الصفوف الدراسية ملائمة لتقلبات الأجواء المناخية، وأن تتيسر مقاعد للجلوس يجد فيها التلميذ بعض الراحة طوال فترة الدرس، كما يجب أن تكون هذه المقاعد متناسبة مع مستوى النظر إلى السبورة، فضلًا عن تيسر بعض التقنيات التربوية، وساحة المدرسة تفتقر هي الأخرى إلى معدات اللعب البسيطة، وخالية من المزروعات مما يجعلها طاردة للتلاميذ أكثر من كونها جاذبة، ولو خُطِّطت ونُظِّمت هذه الساحات بطريقة أخرى لكانت أكثر جاذبية، ولأقبل عليها التلميذ[١١] على أقل تقدير للتمتع بأجوائها واللعب بمعداتها، مما يتوجب عليه قضاء الساعات الدراسية في المدرسة، وبذلك تكون

قد أبعدنا التلميذ عن ترك المدرسة.

٥- تشير الدراسات التي أُجريت على الجانحين أن الجنوح يعد سمة شخصية مميزة للتلاميذ الذين تسربوا من الدراسة[١٢]، ولعل ذلك يرجع إلى عدد من الأسباب، نذكر من أهمها: غياب سلطة الأب، وعدم فاعليته في توجيه الطفل وإرشاده؛ مما يعني أن الطفل سيضطر إلى البحث عن نموذج بديل يشكِّل من خلاله سلوكه، وربما يكون هذا البديل الأم، ولعل ضعف حكمها الخلقي أو عدم اكتراثها بالطفل أو صعوبة السيطرة على سلوكه، قد لا يجعل منها النموذج أو القدوة الحسنة، وعند ذاك سيجد في النماذج المنحرفة قدوة له؛ وبذلك سيشكل سلوكه وفقًا لمعايير هذه النماذج.

وقد يعود السبب إلى الأساليب المتَّبعة في تنشئة الطفل؛ فلقد وجد أن أساليب التنشئة التي تنطوي على: التساهل، أو الشدة والصرامة، أو غياب الدفء الوالدي، قد تجعل الطفل أكثر عرضة للجنوح من أقرانه الذين تربوا على الدفء والحزم؛ وهذا يعود بطبيعة الحال، إلى أن هذه الأساليب -أي: أساليب التساهل والشدة وغياب الدفء الوالدي- لا تُشعر الطفل بأهمية مكانته داخل الأسرة، مما يؤدي بالنتيجة إلى إحداث جفوة بينه وبين الأبوين، وهو الأمر الذي يعطي لجماعة الأقران سلطة التأثير عليه، بعد أن ضعف تأثير السلطة الوالدية، وهنا يبدأ الطفل في تشكيل سلوكه طبقًا للمعايير التي تقرها هذه الجماعة، ولا سيَّما إذا كانت جماعة الأقران تضم عددًا من المنحرفين سلوكيًّا، مما يترتب على ذلك: تنمية شخصيات تتصف بكراهية الآخرين، وعدم الإخلاص في علاقاتها الاجتماعية، ومن المتوقع لهذه الشخصيات أنها ستكون غير قادرة في المستقبل على تقديم الإسناد، أو إبداء التعاطف الإنساني في الحالات التي تقتضي تقديم الإسناد، أو إبداء التعاطف، فضلًا عن كونها باردة في مشاعرها، وبطبيعة الحال سيفضي ذلك إلى إشاعة أنماط سلوكية غير

مقبولة اجتماعيًّا على مستوى التنظيم الاجتماعي، ولعل من أبرزها: التحايل على الآخرين، والغش والخداع، والسرقة، وادعاء البطولة، والتشبه بالكبار من قبيل: التدخين، وتناول المواد المخدرة، أو المسكرة، والتحرش بالفتيات، وربما يتطور الانحراف إلى تكوين ثلل للسطو، والاغتصاب، والقتل.

٦- يلاحظ على التلميذ المتسرب من الدراسة، أنه يعاني بشكل واضح من سوء التوافق الدراسي.

ونعني بسوء التوافق الدراسي هنا: عدم قدرة التلميذ على الانسجام مع الأجواء المدرسية، مما يؤدي به الحال إلى تكوين اتجاهات سلبية نحو الدراسة؛ تلك الاتجاهات التي تنطوي على كراهية المدرسة والنفور من التعلم، وبقصد الإحاطة بالتوافق الدراسي، فإن الأمر يقتضي معرفة المكوِّنات التي يشتمل عليها، وإذا نحن حلَّلنا مكوناته، وجدنا أنها تشتمل على:

أ- علاقة التلميذ بالمعلم.
ب- علاقة التلميذ بأقرانه.
ج- ميل التلميذ إلى المواد الدراسية.
د- الحالة الصحية للتلميذ.

والآن نتناول هذه المكونات بشيء من التفصيل:

أ- علاقة التلميذ بالمعلم

من الملاحظ، أن طبيعة العلاقة بين التلميذ والمعلم، تعد إحد المؤشرات الدالة على التوافق، فإذا كانت هذه العلاقة تتسم بشيء من التسلط والترهيب والتهديد والوعيد؛ فإن النتيجة المنطقية هي الخوف من المدرسة، مما يترتب على ذلك، بعض المشكلات النفسية نذكر منها: عدم اكتراث التلميذ بالمدرسة، وهذا يفضي بمرور الوقت إلى التغيب وعدم الانتظام، وحتى في حال حضوره

-وهو حضور متقطع بالطبع- فإنه سيشعر بالاغتراب مما يحيط به، ومن أجل التخلص من الحالة الاغترابية هذه، فإنه يلجأ إلى أحلام اليقظة؛ وهو الأمر الذي يجعله في حالة شرود ذهني، أي: غير مكترث بما يحدث داخل الصف الدراسي.

والحقيقة أن استمرار الشعور بالاغتراب عن المحيط المدرسي سيجعله أكثر عرضة لترك المدرسة، شريطة أن تكون هناك بعض المحرِّضات في الميدان التي تستثيره على تركها، هذا في حال كون العلاقة بين التلميذ والمعلم تتسم بالتسلط والخوف.

أما العلاقة التي تستند إلى الإسناد والتعاطف والرعاية؛ فأنها تؤدي -ولا ريب- إلى حب المدرسة والاهتمام بها والحرص على الانتظام في حضور الدروس وعدم التغيب عنها والشعور بالارتياح عند أداء الواجبات التي يُكلَّف بها.

وفي وقت لاحق تبدأ ميول التلميذ في التكون وهو ينتقل من صف إلى آخر؛ إذ يفصح عن ميوله هذه صراحةً في أن يكون في المستقبل محاميًا، أو مهندسًا، أو طبيبًا، أو معلمًا، وذلك من خلال التفاعل اللفظي الحادث بينه وبين أقرانه أو أفراد أسرته.

وهنا نصل إلى مسألة لا بدَّ من الإشارة إليها؛ وهي أن طبيعة العلاقة الحادثة بين التلميذ والمعلم ستفضي إلى إحدى النتيجتين الآتيتين:

فإما كراهية المدرسة؛ وهذه ستؤدي إلى التغيب عنها وعدم الانتظام في الدوام الدراسي، وربما يتطور ذلك إلى تركها والانتظام في إحدى المهن الهامشية أو في مهنة ذات نفع اجتماعي، وآية ذلك فإن ثمة خسارة علمية ستترتب على ترك المدرسة؛ تلك الخسارة المتمثلة في عدم إكمال السنوات

التعليمية المطلوبة، فضلًا عن حرمان مؤسسات المجتمع من الملكات المؤهَّلة للإدارة والانتاج.

وأما النتيجة الثانية، فهي حب المدرسة والاهتمام بها والحرص على أداء واجباتها؛ وهذه النتيجة سيترتب عليها الالتزام وعدم التغيب عن الدوام؛ ولعل الأهم من ذلك هو سرعة التعلم وبزوغ الميول لدى التلميذ وتنميتها أثناء المراحل الدراسية التي يمر بها، ثم بروز التفوق في الدروس كافَّة؛ مما يمهد السبيل إلى الإبداع أثناء الدراسة أو ما بعدها عند الانتظام في الميدان المهني.

لا ننسى ونحن نعالج موضوع العلاقة الحادثة بين التلميذ والمعلم، أن نشير إلى مسألة الطرق المتبعة في التدريس؛ إذ إن اختيار الطريقة التدريسية المناسبة لها أثر كبير في فهم التلميذ للمادة الدراسية واستيعابها، ومن ثم تفضيلها، وهو أمر يعزز المواظبة في حضور المادة الدراسية والاهتمام بها، وعلى خلاف ذلك سينفر من المادة الدراسية وعدم الاهتمام بها؛ إن أخفق المعلم في اختيار الطريقة التدريسية المناسبة؛ تلك الطريقة التي تيسر له عملية الفهم والاستيعاب بشكل سهل.

ب- علاقة التلميذ بأقرانه

إن ثمة علاقة بين القبول الاجتماعي والتوافق المدرسي؛ إذ تنطلق هذه العلاقة من مقولة: إن قبول الأقران يزيد من التوافق المدرسي للتلميذ؛ ذلك أن شعور التلميذ بتقبل الأقران له واهتمامهم به سيزيد من مواظبته على الدراسة، وهذا يؤدي بالنتيجة إلى الانسجام مع الأجواء المدرسية، وقد يترتب على هذا الانسجام آثارٌ نفسية إيجابية، نذكر منه: زيادة التحصيل الدراسي، وبروز أنماط من السلوك الإيجابي، وتكوين مفهوم إيجابي عن الذات، إلى جانب تمتعه بالاتزان الانفعالي.

فلقد وُجِد أن التلميذ الذي يحظى بقبول أقرانه، يميل تحصيله الدراسي إلى الزيادة مقارنةً بالتلميذ الذي يحظى بقبول اجتماعي ضعيف[١٣]، وهذا إن دل على شيء، إنما يدل على أن القبول الاجتماعي يجعل التلميذ يشعر بالاقتدار والكفاءة؛ وهذا بدوره يحسِّن من أدائه في الاختبارات المدرسية، مما يفضي إلى بروزه وتميزه بين أقرانه، كما وُجِد، أن التلميذ الذي يحظى بالقبول الاجتماعي، يميل إلى استصدار أنماط سلوكية مقبولة اجتماعيًّا؛ تلك الأنماط التي تكون من قبيل: المساعدة والتعاطف، والابتعاد عن الغش والتحايل، وإطاعة الأنظمة المدرسية، ومساعدة الوالدين في شئونهما المنزلية. كذلك وُجِد أن التلميذ المقبول اجتماعيًّا يميل إلى تكوين مفهوم إيجابي عن ذاته؛ وذلك يرجع - أساسًا- إلى تمتعه بخصائص شخصية مفضلة، وبموجب هذه الخصائص، يغدق عليه الأقران المديح والإطراء في المواقف التي تستدعي الإطراء، إلى جانب الترحيب به وتبليغه بنشاطاتهم وما عزموا عليه؛ وبذلك فإن القبول الاجتماعي يفضي إلى تنمية مفهوم إيجابي عن الذات، ووُجِد أيضًا أن التلميذ الذي يحظى بقبول جماعته يتسم بالاتزان الانفعالي؛ وذلك بسبب أن القبول الاجتماعي يخفِّض أثر الإحباطات التي يتعرض لها في المواقف الاجتماعية، ومن ثَمَّ يخفِّض مشاعر الغضب والتوتر، وعلى ذلك فإن التلميذ الذي يحظى بالقبول الاجتماعي تكون استثارته الانفعالية أقل بدرجة ملحوظة من المرفوض اجتماعيًّا.

ج- ميل التلميذ إلى المواد الدراسية

تعد المواد الدراسية من العوامل المؤثرة في التوافق المدرسي للتلميذ؛ فلقد وُجِد أن ثمة موادَّ دراسية تستثير مخاوف التلميذ، وإذا نحن أجرينا مسحًا لهذه المواد التي تستثير مخاوفه، نجد أن الرياضيات واللغة الإنكليزية والعلوم تعد من المواد الدراسية التي تتصدر قائمة المخاوف المدرسية[١٤]؛ تلك المواد التي يجد فيها التلميذ صعوبة في فهمها واستيعابها، وهناك عدد من الأسباب التي

تستثير مخاوفه، من بينها:

طرق التدريس المتبعة وشخصية المعلم، وكفاءته هي المسئولة عن استثارة مخاوف التلميذ من هذه المواد الدراسية؛ إذ إن غياب الطريقة التدريسية التي تتناسب مع عمر التلميذ ومستواه العقلي، تفضي إلى إحداث صعوبة في فهم المادة الدراسية، كما أن شدة المعلم وتسلطه تنفِّر التلميذ من المادة الدراسية، وتجعله غير مكترث بها، ومن ثَمَّ عدم تفضيلها، كذلك تدني الكفاءة التدريسية للمعلم قد تزيد من صعوبة التلميذ في الفهم والاستيعاب للمادة الدراسية، بَيْدَ أن الشواهد الميدانية تشير إلى أن هذه المواد نالت اهتمام واستحسان التلميذ عندما كُلِّف بتدريسها معلمون يتصفون بخصائص شخصية من قبيل: التعاطف والإسناد والرعاية، إلى جانب تمتعهم بالكفاءة التدريسية المطلوبة، وأنهم على علم ودراية بالطرق التدريسية المناسبة، هذا يعني أن هذه العوامل الثلاثة بإمكانها أن تحوِّل اتجاه التلميذ من النفور من موضوع الاتجاه إلى حب موضوع الاتجاه، أي: من السلب إلى الإيجاب، أو العكس من الإيجاب إلى السلب.

من ذلك يتضح أن بعض المواد الدراسية ربما تؤدي إلى سوء التوافق المدرسي، على أن شخصية المعلم وكفاءته وطريقته في التدريس هي التي تفضي بالتلميذ إلى أن يجد صعوبة في فهمها، ومن ثَمَّ عدم تفضيلها.

د- الحالة الصحية للتلميذ

تشير بعض الدراسات إلى أن الحالة الصحية التي يتمتع بها التلميذ، تعد عاملًا مؤثرًا في توافقه المدرسي[١٥]، ونعني بالحالة الصحية هنا: السلامة البدنية، أو وجود بعض العيوب أو التشوهات في جسد التلميذ، أو غياب السلامة العقلية، فضلًا عن إصابته ببعض الأمراض؛ وعلى ذلك فإن الحالة الصحية السليمة تجعل التلميذ قادرًا على السمع والإبصار والحركة والنطق

والتعلم والفهم والاستيعاب.

والحقيقة أن الأداء الفاعل للنشاطات البدنية والعقلية والاجتماعية سيؤدي إلى شعوره بالكفاءة والاقتدار، ومن ثَمَّ شعوره بالارتياح جراء مجاراة الآخرين في هذه النشاطات أو التفوق عليهم من خلالها، وعلى خلاف ذلك سيشعر التلميذ بالخيبة والفشل والإحباط في حال كونه غير سليم من الناحية البدنية أو العقلية؛ وذلك لعدم تمكنه من أداء النشاطات الدراسية والبدنية والاجتماعية المطلوبة؛ ولأنه لا يتمكن من مجاراة غيره في هذه النشاطات ستزداد معاناته النفسية بمرور الوقت، وقد يفضي ذلك إلى عدم المواظبة في الدراسة، وربما يُعَجِّل تدهور أحواله الأسرية إلى ترك الدراسة.

واضح أن سوء توافق التلميذ مع الأجواء المدرسية، ربما يكون باعثًا على النفور من المدرسة، ومن ثَمَّ التسرب منها وعدم العودة إليها.

٧- لقد وُجِد أن النسق القيمي الوافد يشيع بدرجة لافتة للانتباه لدى التلميذ المتسرب من الدراسة(١٦)، وإذا نحن تفحصنا هذا النسق وجدنا أنه يؤكد الكسب السريع، والتحايل على الآخرين، وعدم جدوى الدراسة، وادعاء البطولة، وتغليب النفعية المادية عند التعامل مع الآخرين؛ ولعل دخول العمل مبكرًا، قد أفضى إلى اكتساب مثل هذا النسق من القيم.

فرضيات البحث

١- يعاني المتسربون من الدراسة من وضع اقتصادي متدنٍّ.

٢- يَفِد المتسربون من الدراسة من أسرة مفككة.

٣- يَفِد المتسربون من الدراسة من أسرة مزدحمة.

٤- يحمل المتسربون من الدراسة اتجاهًا سلبيًّا نحو الأم.

٥- يحمل المتسربون من الدراسة اتجاهًا سلبيًّا نحو الأب.

٦- يحمل المتسربون من الدراسة اتجاهًا سلبيًّا نحو وحدة الأسرة.
٧- يحمل المتسربون من الدراسة اتجاهًا سلبيًّا نحو النساء.
٨- يحمل المتسربون من الدراسة اتجاهًا سلبيًّا نحو العلاقات الجنسية.
٩- يحمل المتسربون من الدراسة اتجاهًا سلبيًّا نحو الأصدقاء والمعارف.
١٠- يحمل المتسربون من الدارسة اتجاهًا سلبيًّا نحو الأشخاص في مواقع السلطة.
١١- يحمل المتسربون من الدراسة اتجاهًا سلبيًّا نحو المرءوسين.
١٢- يحمل المتسربون من الدراسة اتجاهًا سلبيًّا نحو الزملاء في العمل.
١٣- تنتاب المتسربون من الدراسة مشاعر من الخوف تتصل بالظروف المحيطة بهم.
١٤- تنتاب المتسربون من الدراسة مشاعر الذنب تتصل بالأفعال التي اقترفوها في وقت مضى.
١٥- يحمل المتسربون من الدراسة مفهومًا سلبيًّا عن ذواتهم.
١٦- يعاني المتسربون من الدراسة من خبرات مؤلمة حدثت لهم في وقت مضى.
١٧- يحمل المتسربون من الدراسة اتجاهًا ينطوي على التشاؤم من المستقبل.
١٨- يمتلك المتسربون من الدراسة أهدافًا حياتية غير واقعية.

طريقة البحث

العينة

سُحِبت عينة البحث الحالي من المراهقين المتسربين من الدراسة الذين يعملون في مهن مختلفة، ولقد اشتملت هذه المهن على صباغة الأحذية والنجارة والسمكرة والحلاقة وتصليح السيارات والبقالة وتبديل أسطوانات الغاز وبيع علب السجائر وتصليح الدراجات الهوائية وبيع الأصباغ، فضلًا عن تحميل بعض السلع من مكان إلى آخر.

والجدير بالإشارة أن المجتمع الأصلي للدراسة غير معروف؛ إذ لا تتوفر عنه إحصاءات عن حجمه الأصلي، ولما كانت الإحصاءات غير معروفة، فمن الصعوبة بمكان انتقاء عينة ممثِّلة للمجتمع الأصلي، وبذلك تصبح عينة الدراسة الحالية لا احتمالية، ولما كانت كذلك فقد سُحبت بطريقة عمدية، أي: العدد المتاح من المراهقين المتسربين من الدراسة، وبلغت بذلك عينة الدراسة الحالية (٤٠) متسربًا.

كما سحبت عينة من المراهقين بعدد مماثل من أولئك الذين يواصلون دارستهم؛ بقصد عقد مقارنة في الخصائص النفسية بين الفئتين.

وبما أن الفئة العمرية لهؤلاء المتسربين قد تراوحت بين (١٤- ١٨) سنة، وبمتوسط بلغ (١٥، ١٦) سنة، كان لزامًا أن يتم اختيار عينة المقارنة من المراهقين الذين يواصلون دراستهم من الفئة العمرية نفسها؛ لذا سحبت عينة هؤلاء من طلبة الصف الخامس الثانوي والسادس الثانوي، إذ تراوحت أعمارهم بين (١٦- ١٨) سنة وبمتوسط بلغ (٢٩، ١٧) سنة.

الأداة

١- استمارة المسح الاجتماعي

إن الغرض من إعداد هذه الاستمارة، هو الحصول على معلومات شخصية واجتماعية واقتصادية تخص المتسربين من الدراسة، وكذلك أقرانهم من الذين يواصلون دراستهم، ولقد اشتملت هذه الاستمارة على البيانات الآتية:

أ- بيانات عن العمر، وعدد أفراد الأسرة، والتحصيل الدراسي للمتسربين من الدراسة وأقرانهم.

ب- بيانات عن الوضع الاقتصادي للمتسربين من الدارسة وأقرانهم، كالمهنة التي يحترفونها، وعائدية السكن، والدخل الشهري، وعدد غرف النوم.

ج- بيانات عن الوضع الأسري من حيث: استمرار والِدَي كلٍّ من المتسرب من الدراسة وغير المتسرب منها، على علاقتهما الزوجية وبقاؤهما على قيد الحياة وإدمان بعض أفراد الأسرة على الكحول، أو ترددهم على المراقص والملاهي الليلية.

٢- اختبار ساكس لتكملة الجمل

لقد اعتمد البحث الحالي على أداة جاهزة أعدها جوزيف ساكس؛ بقصد قياس توافق الفرد في مجالات مختلفة من الحياة، وقد اعتمد هذا الاختبار على الأسلوب الإسقاطي؛ وذلك بصياغة عبارات أو جمل ناقصة يُطلب فيها من المستجيب تكملتها. وبطبيعة الحال فإن تكملة الجمل ستكشف عن دوافع أو صراعات الفرد الخفية، وربما لا يكشف عنها في الأحوال الاعتيادية.

وبعبارة أخرى فإن الأسلوب الإسقاطي -المتمثل هنا في تكملة الجمل- سيساعد المتخصص أو الباحث على الكشف عن الأفكار الصريحة والحقيقية التي تدور في ذهن المستجيب.

إن ثمة أسبابًا دعت الباحث إلى اختيار هذا الاختبار والتركيز عليه دون غيره من الاختبارات الإسقاطية الأخرى، ولعل من أبرزها:

أ- إن الاختبار الحالي يشتمل على عديد من الأنواع الدالة على التوافق.

إذا نحن عُدنا إلى الاختبار، وجدنا أن هناك (١٥) مجالًا أو اتجاهًا كما يسمِّيها ساكس صاحب الاختبار تقيس قدرة الفرد على التوافق في مجالات حياتية مختلفة.

ب- لقد طُبِّق الاختبار الحالي في البيئة العراقية على عينات مختلفة، بعد أن ترجمه الحمداني ١٩٨٥ في العراق إلى اللغة العربية، فلقد طبقه البياتي ١٩٨٥

على عينة من الجانحين ومن كلا الجنسين، ثم طبقه الحمداني وآخرون ١٩٨٥ على عينة من مرتكبي جرائم القتل.

وفي عام ١٩٩٤ طُبِّق الاختبار على عينات ضمت الموظفين العاملين في المؤسسات الحكومية وأقرانهم، الذين ارتكبوا جرائم السرقة والاختلاس والتزوير والرشوة.

وفي عام ١٩٩٩ طبقه الباحث على عينة من البغايا، ولقد أثبت الاختبار كفاءة في هذه الدراسات، فيما يتصل بالحصول على النتائج المطلوبة.

ج- ومما يجعل الاختبار أكثر ملاءمة للبيئة العراقية أن مترجمه استخرج له معايير عراقية في دراسات لاحقة.

إن اختبار ساكس يهدف إلى الحصول على توافق الفرد في أربعة مجالات، وهي:

١- **الأسرة**: ويشتمل هذا المجال على الاتجاه نحو الأم، والاتجاه نحو الأب، والاتجاه نحو وحدة الأسرة.
٢- **الجنس**: ويشتمل هذا المجال على الاتجاه نحو الجنسين، والعلاقات الزوجية.
٣- **العلاقات الشخصية المتبادلة**: ويشتمل هذا المجال على الاتجاه نحو الأصدقاء والمعارف، والاتجاه نحو زملاء العمل أو المدرسة، والاتجاه نحو رؤساء العمل أو المدرسة، والاتجاه نحو المرءوسين.
٤- **مفهوم الذات**: ويشتمل هذا المجال على فكرة الفرد عن نفسه؛ من حيث المخاوف والشعور بالذنب، والأهداف الحياتية وفكرته عن قدراته، وفكرته عن ماضيه ومستقبله.

إن هذه المجالات تتوزع على (١٥) اتجاهًا؛ إذ يتضمن كل اتجاه أربع فقرات، وبذلك يكون مجموع العبارات أو الفقرات الناقصة للاختبار هي (٦٠) عبارة أو فقرة، والاتجاهات التي يتضمنها الاختبار، يمكن إدراجها على النحو الآتي:

١- الاتجاه نحو الأم.
٢- الاتجاه نحو الأب.
٣- الاتجاه نحو وحدة الأسرة.
٤- الاتجاه نحو المرأة.
٥- الاتجاه نحو الأصدقاء والمعارف.
٦- الاتجاه نحو الرؤساء.
٧- الاتجاه نحو المرءوسين.
٨- الاتجاه نحو الزملاء في العمل.
٩- الاتجاه نحو المخاوف.
١٠- الاتجاه نحو الشعور بالذنب.
١١- الاتجاه نحو القدرات الذاتية.
١٢- الاتجاه نحو الماضي.
١٣- الاتجاه نحو المستقبل.
١٤- الاتجاه نحو الأهداف.

لا بدَّ من الإشارة في هذا السياق إلى أن الاختبار الحالي يتمتع بخصائص سايكومرية؛ فلقد استخرج صدق البناء عن طريق حساب معاملات الارتباط بين المجالات التي يتألف منها، وكانت غير دالة إحصائيًّا، مما يشير إلى أن الاختبار يقيس مجالات مستقلة، كما استخرج الثبات عن طريق إيجاد معامل الارتباط بين نتائج التصحيح التي توصل إليها المحلِّلون، فلقد بلغ (٠.٨٠)[١٧].

وفي الدراسة التي أجراها البياتي، استخرج الثبات عن طريق إيجاد معامل الارتباط بين فترتي التصحيح، وقد بلغ الثبات بهذه الطريقة (٠.٩٥)[١٨]، وفي دراسة أُجريت عام ١٩٩٤، استخرج الثبات عن طريق إيجاد معامل الارتباط بين تصحيح الباحث والمحلل الخارجي، وقد بلغ (٠.٨٣)، ثم بعد ذلك أعيد تصحيح استجابات (٥٠) مستجيبًا بعد مضي شهر؛ بهدف الحصول على الاتساق في الثبات عبر الزمن، وبلغ معامل الارتباط عبر فترتي التصحيح (٠.٩١)[١٩]، وبذلك فإن الاختبار الحالي أثبت اتساقًا عبر الزمن أولًا، وعبر محلل خارجي ثانيًا، مما يعني أن الاختبار أثبت كفاءة في الوصول إلى نتائج دقيقة، ولقد اعتمد البحث الحالي على النسخة المصرية التي وردت بصيغتها النهائية في دراسة العاني ١٩٩٤[٢٠]، وبهدف معرفة طريقة التصحيح التي اعتمد عليها الاختبار الحالي آثرنا تلخيصها على النحو الآتي:

يقرأ الباحث الاستجابات قراءة متمعنة بعد أن يُخضِع نفسه للتدريب على عملية التصحيح؛ بهدف تصنيف الاستجابات فيما بعد، ثُمَّ بعد ذلك يحدد الدرجات المعطاة؛ إذ يعطي (صفرًا) للاستجابة التي لم يجد فيها الباحث أية اضطرابات انفعالية، ويعطي (درجة واحدة) للاستجابة التي تشير إلى وجود اضطراب انفعالي طفيف أو وجود بعض الاضطرابات الانفعالية التي يعاني منها المستجيب، بَيْدَ أنه قادر على معالجتها أو التخلص منها، ويعطي (درجتين) للاستجابة التي تشير إلى وجود اضطراب انفعالي شديد، وأن المستجيب غير قادر على معالجتها، وبذلك تنحصر درجات كل اتجاه بين (صفر- ٨).

النتائج

أولًا: النتائج المتعلقة باستمارة المسح الاجتماعي

١- عائدية السكن

بلغت نسبة المتسربين من الدراسة الذين تمتلك أسرهم وحدات سكنية (٨٥٪)، كما بلغت نسبة أقرانهم الذين تمتلك أسرهم هذه الوحدات (٩٢.٥٪)؛ وبذلك فإن امتلاك الوحدة السكنية لكل من المتسربين من الدراسة وأقرانهم هي النسب الغالبة.

٢- الدخل الشهري

تراوح الدخل الشهري لعينة المتسربين من الدراسة بين (١٢.٠٠٠- ٨٩.٠٠٠) دينار، في حين تراوح الدخل الشهري لعينة المقارنة بين (٥٠.٠٠٠- ١٨٠.٠٠٠) دينار؛ وبقصد معرفة فئات الدخل الشهري لأفراد عينة المتسربين وأقرانهم، فإن الجدول (١) يوضح ذلك.

الجدول (١)
يوضح النسبة المئوية لفئات الدخل الشهري
لكل من المتسربين من الدراسة وأقرانهم

فئات الدخل الشهري	النسبة المئوية للمتسربين	النسبة المئوية لأقرانهم
أقل من ٥٠ ألف دينار	٥٠	١٠
٥٠ ألف- ٥٩ ألف دينار	١٧.٥	١٢.٥
٦٠ ألف- ٦٩ ألف دينار	١٠	١٢.٥
٧٠ ألف- ٧٩ ألف دينار	٧.٥	٥
٨٠ ألف- ٨٩ ألف دينار	١٥	١٠
٩٠ ألف- ٩٩ ألف دينار	-	١٧.٥
١٠٠ ألف- ١٠٩ ألف دينار	-	٢.٥
١١٠ ألف- ١١٩ ألف دينار	-	٢.٥
١٢٠ ألف- ١٢٩ ألف دينار	-	٥
١٣٠ ألف- ١٣٩ ألف دينار	-	١٠
١٤٠ ألف- ١٤٩ ألف دينار	-	٢.٥
١٥٠ ألف- ١٥٩ ألف دينار	-	٧.٥
١٦٠ ألف فأكثر	-	٢.٥

يتضح من الجدول أن (٥٠٪) من عينة المتسربين من الدراسة، كان دخلها الشهري أقل من (٥٠٠٠٠ دينار)، وهو دخل غير كافٍ استنادًا إلى الأسعار الجارية، كذلك دخل النسبة المتبقية وهي (٥٠٪) أيضًا لم يكن هو الآخر كافيًا، عند إدخال متغير حجم الإعالة، في حين أن عينة المقارنة يتوزع دخلها بين (٢.٥٪- ١٧.٥٪) على الفئات المشار إليها في الجدول، مما يعني أن الوضع الاقتصادي لعينة المقارنة أفضل مما هو لدى عينة المتسربين من الدراسة.

٣- التحصيل الدراسي

تشير البيانات أن (٦٧٪) من عينة المتسربين من الدراسة لم يتجاوز تحصيلها الدراسي المرحلة الابتدائية، وهذا يعني أنها تركت الدراسة قبل أن تنهي المرحلة الابتدائية، وأن النسبة المتبقية ومقدارها (٣٣٪)، إذ واصلت الدراسة إلى الصف الثاني المتوسط، ثم بعد ذلك تركتها، وانخرطت في الميدان المهني.

٤- الوضع الأسري

تشير البيانات في الجدول (٢) إلى الوضع الأسري الذي يتمتع به المتسربون من الدراسة وأقرانهم.

الجدول (٢)

يوضح النسبة المئوية لطبيعة الوضع الأسري

للمتسربين من الدراسة وأقرانهم

طبيعة الوضع الأسري	النسبة المئوية للمتسربين	النسبة المئوية لأقرانهم
بقاء الأب على قيد الحياة	٧٠	٩٧.٥
بقاء الأم على قيد الحياة	٩٥	١٠٠
وفاة الأب	٣٠	٢.٥
وفاة الأم	٥	-
استمرار عرى العلاقة الزوجية بين الأب والأم	١٠٠	١٠٠
انفصام عرى العلاقة الزوجية بين الأب والأم	-	-
إدمان أحد أفراد الأسرة على الكحول	-	٢.٥
تردد أحد أفراد الأسرة على المراقص والملاهي الليلية	-	٢.٥
وجود الخلافات الأسرية	٢.٥	٧.٥

واضح أن الوضع الأسري لكل من المتسربين من الدراسة وعينة المقارنة يتسم بالاستقرار.

٥- حجم الأسرة

تراوح حجم أسرة المتسربين من الدراسة بين (٢- ١٢) فردًا، وبمتوسط بلغ (٧.٦٣) فردًا، فيما تراوح حجم أسرة أفراد عينة المقارنة بين (٤- ٩) أفراد، وبمتوسط بلغ (٦.٥) فرد، والجدول (٣) يوضح ذلك.

الجدول (٣)
يوضح النسبة المئوية لأحجام أسر المتسربين
من الدراسة وأقرانهم

حجم الأسرة	النسبة المئوية للمتسربين	النسبة المئوية لأقرانهم
١- ٣	٢.٥	-
٤- ٦	٣٠	٥٠
٧- ٩	٥٢.٥	٥٠
١٠- ١٢	١٥	-

يتضح من الجدول أن فئة (٧- ١٢) فردًا تشكل النسبة الكبيرة من أفراد عينة المتسربين؛ إذ بلغت (٦٧.٥٪)، في حين أن فئتي (٤- ٦) و(٧- ٩) شكلت كل منهما (٥٠٪) بالنسبة لأفراد عينة المقارنة.

٦- عدد غرف النوم

تراوح عدد غرف النوم لأفراد عينة المتسربين من الدراسة بين (٢- ٥) غرف نوم، وبمتوسط بلغ (٣.٦٧) غرفة، فيما تراوح عدد غرف النوم لأفراد عينة المقارنة بين (٢- ٦) غرف نوم، وبمتوسط بلغ (٤.٠٢) غرفة. والجدول (٤) يوضح ذلك.

الجدول (٤)

يوضح النسبة المئوية لفئات غرف النوم

لكل من المتسربين من الدراسة وأقرانهم

فئات غرف النوم	النسبة المئوية للمتسربين	النسبة المئوية لأقرانهم
١ - ٢	٧.٥	٢.٥
٣- ٤	٧٧.٥	٦٥
٥- ٦	١٥	٣٢.٥

يتضح من الجدول أن فئة (٣- ٤) غرف احتلت النسبة الكبيرة؛ إذ بلغت (٧٧.٥٪)، ثم جاءت بعدها الفئة (٥- ٦)؛ إذ بلغت نسبتها (١٥٪)، هذا بالنسبة لأفراد عينة المتسربين من الدراسة، أما بالنسبة لأفراد عينة المقارنة، فإن الفئة (٣- ٤) غرف قد احتلت النسبة الكبيرة؛ إذ بلغت (٦٥٪)، ثم جاءت بعدها الفئة (٥- ٦) غرف؛ إذ بلغت نسبتها (٣٢.٥).

إن من البيِّن الواضح أن عينتي البحث الحالي تتمتع بعدد كافٍ من غرف النوم؛ وذلك لأن الفئة (٣- ٤) غرف هي التي احتلت النسبة الكبيرة، فلقد بلغت هذه النسبة لدى عينة المتسربين (٧٧.٥٪)، فيما بلغت لدى عينة المقارنة (٦٥٪)، ومع أننا نحذر من تعميم مثل هذه النتيجة، إلا أن المنطق يقتضي معرفة نصيب الأفراد من غرف النوم؛ ليتسنى لنا -بعد ذلك- تحديد نسبة الإشغال المقبولة أو المريحة داخل المنزل، وبقسمة عدد أفراد الأسرة على عدد غرف النوم، فإن نسبة الإشغال داخل الغرفة الواحدة بالنسبة لعينة المتسربين تكون (٢.٠٧) فردًا، أما نسبة الإشغال داخل الغرفة الواحدة فيما يخص عينة المقارنة تكون (١.٦١) فردًا؛ وبهدف تقويم هذه النسبة التي خرجت بها الدراسة الحالية يقتضي الأمر أن تقارن بمعيار معين يتم بموجبه تحديد النسبة

المقبولة للإشغال.

وهنا نجد أن المعيار الذي يحدد نسبة الأشغال المقبولة، يتأثر بالعامل الثقافي، فقد تعد نسبة إشغال معينة في ثقافة ما، على سبيل المثال مقبولة ولا تشير إلى التزاحم، بينما تعد هذه النسبة في ثقافة أخرى غير مقبولة؛ إذ تشير إلى التزاحم، وبهذا المعنى فإن المسألة تخضع إلى العامل الثقافي أكثر من خضوعها إلى العامل الإحصائي؛ ففي بعض الثقافات الأوربية على سبيل المثال لا الحصر، تعد نسبة (١.٥) شخص في الغرفة مزدحمة، وما زاد عن هذه النسبة، تعد الغرفة مزدحمة جدًّا[٢١]، بَيْدَ أن هذه النسبة تعد مقبولة في ثقافة أخرى، ففي العراق-مثلًا- تعد نسبة الإشغال التي تتراوح بين (٢.٣٣- ٣.٦٨) شخص في الغرفة الواحدة مزدحمة[٢٢]، وهذا يعني صراحة أن نسبة الإشغال (١.٥) شخص أو أكثر تعد نسبة إشغال مقبولة استنادًا إلى المؤشر المشار إليه، ولكن زيادة نسبة الإشغال بأكثر من شخصين إلى (٣.٦٨) شخص، تعد نسبة غير مقبولة، وتدخل ضمن نطاق الازدحام، وما زاد عن (٣.٦٨) شخص في الغرفة الواحدة، تعد هذه النسبة غير مقبولة أيضًا، وتدخل ضمن نطاق الازدحام الشديد[٢٣]، وطبقًا لهذا المؤشر تعد النسبة التي خرجت بها الدراسة الحالية مقبولة، ولا تؤشر أن ثمة ازدحامًا يعاني منه الأفراد.

ثانيًا: النتائج المتعلقة باختبار ساكس لتكملة الجمل

يشير الجدول (٥) إلى النتائج المتعلقة باختبار ساكس لتكملة الجمل؛ وبهدف معرفة نوعية الاتجاهات السائدة في المجالات التي يشتمل عليها الاختبار، ندرج في أدناه نتائج المعالجة الإحصائية لكل من عينتي المتسربين من الدراسة وأقرانهم، التي تمت معالجتها باستعمال الاختبار التائي لعينتين مستقلتين؛ وذلك لاختبار دلالة الفروق بين متوسطات العينتين المذكورتين:

١- تشير نتائج المعالجة الإحصائية في الجدول (٥) إلى وجود فروق ذات

دلالة إحصائية عند مستوى (٠.٠٥) بين متوسطات عينتي المتسربين وأقرانهم في المجالات الآتية:

- الاتجاه نحو الأم.
- الاتجاه نحو الأب.
- الاتجاه نحو وحدة الأسرة.
- الاتجاه نحو النساء.
- الاتجاه نحو الجنس.
- الاتجاه نحو رؤساء العمل.
- الاتجاه نحو المرءوسين.
- الاتجاه نحو زملاء العمل.
- الاتجاه نحو المخاوف.
- الاتجاه نحو الشعور بالذنب.
- الاتجاه نحو القدرات الذاتية.
- الاتجاه نحو الماضي.
- الاتجاه نحو المستقبل.
- الاتجاه نحو الأهداف.

وعند ملاحظة المتوسطات للعينتين المذكورتين نجد أن متوسطات المتسربين في هذه المجالات، كانت أعلى من متوسطات أقرانهم، وهذا يعني أن المتسربين يحملون اتجاهات سلبية في هذه المجالات.

الجدول (٥)

يوضح النتائج المتعلقة باختبار ساكس لتكملة الجمل لأفراد عينتي المتسربين من الدراسة وأقرانهم

ت	مجالات اختبار ساكس	المتسربون		أقرانهم		القيمة التائية المحسوبة	القيمة التائية الجدولية	الدلالة عند مستوى ٠.٠٥
		المتوسط	الانحراف المعياري	المتوسط	الانحراف المعياري			
١	الاتجاه نحو الأم	٢.٥٣	١.٣٦	١.١٣	٠.٨٥	٥.٥٢٠	١.٩٨٠	دال
٢	الاتجاه نحو الأب	٤.١٨	١.٦٦	٢.١٣	١.٢٤	٦.٢٤٤		دال
٣	الاتجاه نحو وحدة الأسرة	٢.٣٠	١.٧١	١.٠٥	٠.٩٠	٤.٠٨٢		دال
٤	الاتجاه نحو النساء	٢.٥٨	١.٢٤	١.٧٨	٠.٧٣	٠٣.٥١٦		دال
٥	الاتجاه نحو الجنس	٢.٩٨	١.١٤	١.٨٨	١.١١	٤.٣٥٩		دال
٦	الاتجاه نحو الأصدقاء والمعارف	١	١.٠١	٠.٧٣	٠.٨٢	١.٣٣٧		غير دال
٧	الاتجاه نحو رؤساء العمل	٢.٧٥	١.٦٨	١.١٥	١.١٠	٥.٠٥٠		دال
٨	الاتجاه نحو المرءوسين	١.٥٣	٠.٨٨	١.٦٠	٠.٨٧	٠.٣٨٤		غير دال
٩	الاتجاه نحو زملاء العمل	١.٧٥	١.٥٦	١.١٣	٠.٨٨	٢.٢٠٠		دال
١٠	الاتجاه نحو المخاوف	٤.٣٣	١.١٤	١.٧٨	٠.٨٦	١١.٢٧٨		دال
١١	الاتجاه نحو الشعور بالذنب	٤.٩٥	٠.٩٣	١.٧٨	٠.٨٣	١٦.٠٧٣		دال
١٢	الاتجاه نحو القدارت الذاتية	٣.٣٨	١.٦٦	١.٦٨	٠.٩٤	٥.٦٣٢		دال
١٣	الاتجاه نحو الماضي	٢.٢٠	١.٠٢	١.٠٥	٠.٧١	٥.٨٤٩		دال
١٤	الاتجاه نحو المستقبل	٢.٥٠	١.٢٠	١.٥٥	٠.٧١	٤.٣٠٧		دال
١٥	الاتجاه نحو الأهداف	٢.٥٨	١.٠٩	١.٥٠	٠.٧٢	٣.٧٦٩		دال

٢- تشير نتائج المعالجة الإحصائية في الجدول المذكور إلى عدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى (٠.٠٥) بين متوسطات عينتي المتسربين وأقرانهم في مجالي الاتجاه نحو الأصدقاء والمعارف والاتجاه نحو المرءوسين، ولعل تقارب المتوسطات في العينتين المذكورتين قد أدى إلى انتفاء الفروق بينهما في هذين المجالين، وهذا يعني أن الاتجاهات التي يحملها المتسربون وأقرانهم نحو الأصدقاء والمعارف، وكذلك نحو المرءوسين هي اتجاهات إيجابية.

نستدل من النتائج التي خرجت بها الدراسة الحالية إلى ما يأتي:

١- إن المتسربين من الدراسة يعاون من وضع اقتصادي متدنٍ.

٢- لقد وُجِد من البيانات أن غالبية المتسربين من الدراسة تركوا الدراسة في وقت مبكر، أي: قبل إنهاء المرحلة الابتدائية، وأن القليل منهم واصل الدراسة إلى الصف الثاني المتوسط، ثم بعد ذلك هجرها.

٣- أن الوضع الأسري لكل من المتسربين وأقرانهم يتسم بالاستقرار.

٤- بلغ متوسط حجم الأسرة لأفراد عينة المتسربين من الدراسة (٧.٦٣) فردًا، فيما بلغ حجم الأسرة لأفراد عينة المقارنة (٦.٥) فرد.

٥- بلغ متوسط عدد غرف النوم لأفراد عينة المتسربين من الدراسة (٣.٦٧) غرفة، فيما بلغ متوسط عدد غرف النوم لأفراد عينة المقارنة (٤.٠٢) غرفة.

٦- يحمل المتسربون من الدراسة اتجاهًا سلبيًّا نحو الأم.

٧- يحمل المتسربون من الدراسة اتجاهًا سلبيًّا نحو الأب.

٨- يحمل المتسربون من الدراسة اتجاهًا سلبيًّا نحو وحدة الأسرة.

٩- يحمل المتسربون من الدراسة اتجاهًا سلبيًّا نحو النساء.

١٠- يحمل المتسربون من الدراسة اتجاهًا سلبيًّا نحو العلاقات الجنسية.

١١- يحمل المتسربون من الدراسة اتجاهًا سلبيًّا نحو الأشخاص في مواقع السلطة.

١٢- يحمل المتسربون من الدراسة اتجاهًا سلبيًّا نحو زملاء العمل.

١٣- تنتاب المتسربون من الدراسة مشاعر من الخوف تتصل بالظروف المحيطة بهم.
١٤- تنتاب المتسربون من الدراسة مشاعر من الذنب تتصل بالأفعال التي اقترفوها في وقت مضى.
١٥- يحمل المتسربون من الدراسة مفهومًا سلبيًّا عن ذواتهم.
١٦- يعاني المتسربون من الدراسة من خبرات مؤلفة حدثت لهم في وقت مضى.
١٧- يحمل المتسربون من الدراسة اتجاهًا ينطوي على التشاؤم من المستقبل.
١٨- يمتلك المتسربون من الدراسة أهدافًا حياتية غير واقعية.
١٩- يحمل المتسربون من الدراسة اتجاهًا إيجابيًّا نحو الأصدقاء والمعارف.
٢٠- يحمل المتسربون من الدراسة اتجاهًا إيجابيًّا نحو المرءوسين.

وتأسيسًا على ما سبق، يمكن القول: إن الفرضيات التي تحققت في البحث الحالي هي الآتي:

١، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ١٠، ١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ١٦، ١٧، ١٨ فيما لم تتحقق الفرضيات الآتية: ٢، ٣، ٩، ١١.

مناقشة النتائج

لقد تبين من النتائج التي أسفر عنها البحث الحالي أن المتسربين من الدراسة يتمتعون بعديد من الخصائص النفسية، ولا سيَّما السلبية منها على وجه التحديد، وإذا نحن أمعنا النظر في الأسباب التي أدت إلى هذه الخصائص وجدنا أن هذه الأسباب يكمن جزء منها في الوضع الاقتصادي، وجزء آخر يكمن في الخلفية الاجتماعية للمتسربين أنفسهم وجزء ثالث يكمن في محيط العمل؛ ولإيضاح أثر هذه الأسباب في تشكيل الخصائص النفسية التي يتمتعون بها، نتناول كلًّا منها بشيء من الإسهاب على النحو الآتي:

١- إن الوضع الاقتصادي المتدني الذي تعيشه الأسرة، اضطرها إلى تشغيل بعض أبنائها في أعمال هامشية؛ لكي يسهموا معها في سد بعض احتياجاتها، ولقد أفضى ذلك إلى تكوين خبرات مؤلمة، أخذوا يعانون منها على الدوام؛ نتيجة سوء المعاملة التي تلقوها من الأبوين في وقت مبكر، وقد ترتب على ذلك تكوين اتجاهات سلبية نحو الأم والأب ووحدة الأسرة.

٢- كذلك اشتغال هؤلاء الأطفال والأحداث في مهن متدنية، قد أفضى إلى إحساسهم بالتعب والإنهاك في وقت مبكر من حياتهم، فضلًا عن عدم الشعور بالارتياح من أساليب التعامل الحادثة مع أرباب العمل أو مع المستفيدين، مما ولّد لديهم شعورًا بالنقمة والسخط على الظروف التي دفعتهم إلى الاشتغال في هذه المهن، فضلاً عن اكتسابهم اتجاهات سلبية نحو الآخرين ونحو الأشخاص في مواقع السلطة ونحو زملاء العمل، ولعل خلو محيط العمل من العلاقات الإنسانية، قد يكون السبب في اكتساب هذا النوع من الاتجاهات.

٣- ولأنهم يعيشون حالة من البؤس والشقاء، فقد غدا حال المستقبل بالنسبة لهم حال الحاضر؛ إذ لا يتوقعون منه أن يحمل لهم بشائر للخلاص من أوضاعهم الراهنة، وإنما يحمل لهم المزيد من الشقاء، ثم إن الخشية من استمرار الكد والكدح اليومي، ربما يفسر مشاعر الخوف التي أخذت تنتابهم، كما أن استمرار الكد والكدح اليومي، قد أفضى بدوره إلى اكتسابهم أهدافًا حياتية غير واقعية.

٤- يلاحظ على المهن التي يعمل بها هؤلاء الصبية أنها تكثر في الأماكن التي تزدحم بالمارة، ولعل المهم هنا، هو أن هذه الأماكن تتكرر فيها يوميًا أمام أعين هؤلاء الصبية حالات من قبيل: تصرف بعض النسوة بطريقة مخالفة للقواعد الخلقية العامة، أو استجابة بعضهن إلى إشارة أو تلميح بعض المارة،

ولقد أدى ذلك إلى تكوين اتجاهات سلبية نحو النساء عمومًا، ثم إن وجود هؤلاء في أماكن يكثر فيها بعض المنحرفين، الذين يتبادلون فيما بينهم ألفاظ السباب، فضلًا عن تبادل الألفاظ النابية التي تخدش الحياء الاجتماعي، واشتراك هؤلاء الصبية مع أولئك المنحرفين في الألفاظ النابية، قد أفضى إلى تسفيه العلاقات الزوجية وتحقيرها، وإفراغها بعد ذلك من محتواها النفسي والاجتماعي، والنظر إليها على أنها علاقات تستهدف بالدرجة الأساس، إشباع الحاجة البيولوجية وحسب.

٥- ولعل معاناة هؤلاء الصبية من مشاعر الذنب، ربما ترجع إلى المخالفات التي اقترفوها، أثناء دخولهم المبكر إلى ميدان العمل.

إن الدراسة الحالية تقترح إجراء بعض الدراسات حول الخصائص النفسية للمتسربين من الدراسة، وذلك باستعمال مقاييس إسقاطية أخرى؛ بهدف التثبت من هذه الخصائص بشكل نهائي وقاطع.

الهوامش

(١) محمود شمال حسن. (صغار في أزمة)، دراسة الآثار النفسية الناجمة عن تعرض الأطفال للأزمة الاقتصادية، بحث أُلقِي في المؤتمر العلمي العربي الأول الذي نظمه مكتب الاستشارات النفسية في مركز البحوث النفسية بوزارة التعليم العالي والبحث العلمي، وذلك في بغداد للمدة ٢٤-٢٦ تشرين الثاني ١٩٩٨، إبراهيم على هاشم السادة، التسرب في التعليم الابتدائي في دولة قطر، ط١، (قطر، ١٩٨٢)، ص١٤-١٥.

عواطف فيصل بياري، العوامل المؤدية إلى تأخر طلاب المرحلة الثانوية دراسيًا: دراسة تطبيقية على عينة من المدارس الثانوية بمدينة الرياض، مجلة التربية (الكويت)، العدد ٢، السنة ١ (يوليو – أغسطس – سبتمبر ١٩٨٦)، ص٥٢.

S.O. Lichter and etal. The droup-outs: Atreatment study of in tellectually capable students who drop out of high school. (The Free press of Glencoe. 1962). P. 73.

B.I. Greene preventing student dropouts. (New gersey: Engle- Wood Cliffs. 1966). P.29.

(٢) محمود شمال حسن، نحو مجتمع منجز: وجهة نظر لتهيئة المجتمع العربي للإنجاز، (عمان: دار الأبرار للنشر والتوزيع، ٢٠٠٢).

(٣) عبد الباسط عبد المعطي، بعض المتغيرات الاجتماعية المؤثرة في العلاقة بين التعليم والتنمية البشرية في الوطن العربي، ورقة قدمت إلى: التنمية البشرية في الوطن العربي: بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمتها الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، واللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا (الأسكوا)، وبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٥)، ص٣١٥.

(٤) عبد الرزاق الفارس. (الحكومة والفقراء والإنفاق العام): دراسة لظاهرة عجز الموازنة وآثارها الاقتصادية والاجتماعية في البلدان العربية، ط١، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٧)، ص١٧٧. اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا، (أثر سياسات الاقتصاد الكلي والسياسات الاجتماعية على الفقر): حالة الأردن ومصر والجمهورية اليمنية، (نيويورك: الأمم المتحدة، ١٩٩٧)، ص٩٤.

(٥) علي بو عناقة. (الأحياء غير المخطّطة وانعكاساتها النفسية- الاجتماعية على الشباب): دراسة ميدانية مقارنة في مدينة جزائرية، المستقبل العربي، السنة ١٣ العدد

١٤٥(آذار-مارس ١٩٩١) ص١٠٢.
(٦) اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا. (أثر سياسات الاقتصاد الكلي والسياسات الاجتماعية على الفقر): حالة الأردن ومصر والجمهورية اليمنية، ص٩٤.
(٧) الفارس. (الحكومة والفقراء والإنفاق العام): دراسة لظاهرة عجز الموازنة وآثارها الاقتصادية والاجتماعية في البلدان العربية، ص٨٢.
(٨) اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا، ص٩٨.
(٩) المصدر نفسه، ص٩٧.
(١٠) المصدر نفسه، ص٩٧.
(١١) محمود شمال حسن، سيكولوجية الفرد في المجتمع: مدخل (القاهرة: دار الآفاق العربية، ٢٠٠١)، ص٣٦٣-٣٦٤.
(١٢) محمد عارف. (الجريمة في المجتمع): نقد منهجي لتفسير السلوك الإجرامي (القاهرة: مكتبة الأنجلو، ١٩٧٥)، ص٥٩١.
عبد العزيز برودون. (انحراف الأحداث في المدينة الجزائرية): دراسة تحليلية لمظاهر السلوك الانحرافي في الوسط الحضري، مجلة الطفولة والتنمية، المجلد٢، العدد ٧ (خريف، ٢٠٠٢)، ص١٩١.
L.G Howton. Evaluating Juvenile delinquency research, in: B.Roseverg and etal. Mass society in crisis: Social problems and social pathology. 2 nd ed (New York: The Macmillan Company. 1971).p. 293.
(١٣) عدنان حسين خضير. (علاقة القبول الاجتماعي ببعض المتغيرات المدرسية لطلبة الدراسة الثانوية) (بغداد: جامعة بغداد، رسالة ماجستير غير منشورة، ١٩٨٢)، ص٧٣-٧٥.
D.G. Cornel, Highability students who are popular with their peers Gifted child Quarterly, vol.43, No.4. 1990, p. 155-160.
(١٤) عباس علوان داود. (مخاوف المراهقين في مرحلة الدراسة المتوسطة في مدينة بغداد) (بغداد: جامعة بغداد، رسالة ماجستير غير منشورة، ١٩٨٢)، ص٥٨-٦٠، خلدون نجيب الزبيدي. (المخاوف المدرسية ومصادرها لدى تلاميذ المرحلة الابتدائية في مدينة بغداد) (بغداد: جامعة بغداد، رسالة ماجستير غير منشورة، ١٩٨٢) ص٩٤.
(١٥) سونيا هاغنت وجينيفر هيلتن، نمو شخصية الفرد والخبرة والاجتماعية، ترجمة قيس

النوري، ط١ (بغداد: دار الشئون الثقافية العامة، ١٩٨٨)، ص١٨٩.
(١٦) حسن. (صغار في أزمة): دراسة الآثار النفسية الناجمة عن تعرض الأطفال للأزمة الاقتصادية.
(١٧) موفق الحمداني وآخرون. (جرائم القتل): دراسة ميدانية لعدد من مؤشراتها النفسية والاجتماعية (بغداد: مركز البحوث والدراسات بمديريات الشرطة العامة، ١٩٨٥)، ص٥٢.
(١٨) محمد سليمان إبراهيم البياتي، بعض جوانب شخصية الحدث فاقد الوالدين: دراسة مقارنة (بغداد: جامعة بغداد، رسالة ماجستير غير منشورة، ١٩٨٥) ، ص٧٣.
(١٩) مها عبد المجيد العاني. (الخصائص النفسية لمرتكبي جرائم السرقة والاختلاس والتزوير والرشوة للعاملين في المؤسسات الحكومية) (بغداد: جامعة بغداد، رسالة ماجستير غير منشورة، ١٩٩٤)، ص٤٢.
(٢٠) المصدر نفسه، ص١٠٦-١٠٩.
(21) K.D. Harris, crime and The environment. (Illinois: charles C Thomas. Publishers.1980),p.34.
(٢٢) فاضل عبد اللطيف المالح. (الكثافة والاكتظاظ في المناطق السكنية) (بغداد: جامعة بغداد، رسالة ماجستير غير منشورة، ١٩٩٩)، ص١١٠.
(٢٣) المصدر نفسه، ص١١٠.

الآثار النفسية المترتبة
على تعرض الأطفال
إلى الأزمة الاقتصادية

المقدمة

لقد أحدثت الحروب المتلاحقة التي شهدها المجتمع العراقي جملة من الأزمات الاقتصادية والاجتماعية، وقد برزت هذه الأزمات في أشكال متعددة، منها: زيادة معدلات البطالة وارتفاع معدلات التضخم وزيادة الأسعار ورفع الدعم عن المواد الأساسية، ثم جاءت الحرب الأخيرة التي أفضت إلى سقوط النظام الحاكم، لتزيد من حدة هذه الأزمات. فلقد أفضى حل بعض الدوائر والوزارات إلى تعطل عدد من الأفراد عن العمل، وقد ترتب على ذلك صعوبات معيشية، أخذت تعاني منها بعض الأسر العراقية وبهدف تحسين الدخل الشهري ومواجهة الارتفاع الحادث في الأسعار، فضلًا عن مواجهة بعض ما تقتضيه المعيشة من مستلزمات غذائية واستهلاكية، لجأت هذه الأسر مضطرة على تشغيل بعض أبنائها في أعمال هامشية؛ لكي يسهموا معها في سد احتياجاتها.

وقد تسبب انشغال الأسرة بهمومها الحياتية المتلاحقة -وهذا ما يهمنا هنا- إهمال الأطفال وعدم إشباع حاجاتهم من الدفء الأبوي والرعاية الأسرية، مما ترتب على ذلك تعرض هؤلاء الأطفال إلى عدد من المشكلات النفسية. وقد ازدادت هذه المشكلات حدة، نتيجة استمرار هذه الأزمات وغياب البرامج النفسية والاجتماعية للتقليل من آثارها. وفي هذه الدراسة، سيقتصر الحديث عن رصد الآثار النفسية في حالة استمرار الأزمات الاقتصادية إلى أجل غير مسمى، ثم بعد ذلك نعمد إلى طرح عدد من البرامج المقترحة التي من شأنها أن تقلل من آثارها.

لعل من المفيد الإشارة هنا، قبل الخوض في تفاصيل الآثار النفسية المترتبة على الأزمة الاقتصادية، أن الأثر النفسي المترتب على مشكلة معينة، يقتضي بين ما يقتضي؛ لكي يظهر إلى العيان، توفر ثلاثة شروط.

فأما الشرط الأول: فهو شرط الشدة، ونعني بالشدة **أن تكون المشكلة** شديدة الوطأة، بالغة الخطورة.

وأما الشرط الثاني: فهو المدة الزمنية، والمدة الزمنية مطلوبة هنا؛ **لكي تجعل** المشكلة أكثر وضوحًا، إذ وجد أن المدة الزمنية، كلما طالت، أصبحت المشكلة أكثر وضوحًا، مما يستدعي التدخل لإيجاد الحلول المناسبة لها.

وأما الشرط الثالث: فهو شرط التكرار، ونعني بالتكرار هنا أن المشكلة ينبغي أن تتكرر على الدوام معرضة الفرد إلى جملة من المتاعب، هذه المتاعب قد تفضي به إلى طلب العون والمساعدة من الآخرين؛ بهدف التقليل من حدتها. وبذلك، فإن شدة المشكلة والفترة الزمنية الطويلة التي تستغرقها وتكرارها، سينجم عنه آثارٌ معينة، هذه الآثار تتحدد تبعًا لنوع المشكلة فإذا كانت المشكلة نفسية، فإن الآثار المترتبة عليها ستكون نفسية بالدرجة الأولى وإن كانت اجتماعية، فإن الآثار المترتبة عليها ستكون اجتماعية وإن كانت اقتصادية، سيترتب عليها آثارٌ نفسية واجتماعية، فضلًا عن الآثار الاقتصادية، وهلم جرا إلى المشكلات الأخرى.

وبعد معرفة الشروط التي يتم بموجبها إحداث الأثر النفسي، نطرح السؤال الآتي: ما الآثار النفسية المتوقعة على استمرار الأزمة الاقتصادية إلى أجل غير مسمى؟

في حقيقة الأمر، هناك عدد من الآثار النفسية التي يتوقع أن تظهر بين

الأطفال، جراء استمرار الأزمة الاقتصادية لفترة زمنية طويلة، وفي هذا السياق سنشير إلى أهمها:

١- زيادة معدلات التسرب من الدراسة

لعل من الآثار النفسية المترتبة على الأزمة الاقتصادية، زيادة معدلات التسرب من الدراسة[١] بصورة غير طبيعية. وربما يعود السبب إلى أن الأسرة على العموم أخذت تتداول أحاديث عن المعيشة وهمومها والأساليب التي يتم من خلالها تحسين حال الفرد، مع ذكر الأمثلة عن الأفراد الذين ارتقوا في السلم الاجتماعي؛ وذلك من خلال الاشتغال بمهن تتناسب وظروف الأزمة. وبطبيعة الحال، إن أحاديث الأسرة عن الغنى وتحسين الحال بعيدًا عن الدراسة، سيؤدي إلى إشراط الصغار، ونعني بإشراط الصغار هنا، العملية التي يتم من خلالها تنفير الصغار من الدراسة وترغيبهم بالأعمال الحرة أو تلك الأعمال التي لا تستدعي بذل أي جهد دراسي[٢].

وبالمحصلة النهائية، ستنشأ حالة من الاقتران الشرطي بين الصفات السلبية، والمهنة المراد إشراطها، فالمهنة التي تقترن في العادة بصفات إيجابية، سيجد فيها الصغار تفضيلًا وإقبالًا على ممارستها واحترافها، بينما المهن التي تقترن بصفات سلبية، سيجد فيها الصغار نفورًا وعدم تفضيل. واستنادًا إلى ذلك، شاع بين الصغار بعض الحجج في العزوف عن الدراسة، وهذه الحجج هي في الواقع مستمدة من الإشراط السابق في المحيط الأسري.

ومما يخشى منه، أن عزوف الصغار عن مواصلة التعليم من جانب، وزيادة معدلات التسرب في المراحل الدراسية المختلفة من جانب آخر، قد يؤثر تأثيرًا بينًا في علمية تكوين رأس المال البشري؛ وذلك لأن المجتمع يعول على هذه الفئات العمرية في المستقبل المنظور، في أن تصبح ملاكًا علميًّا في كل قطاعاته بعد أن تهرم وتشيخ ملاكاته العلمية الحالية، وإنه أمر مخيف حقًّا إن استمرت

عملية التسرب بالازدياد، دون إيجاد الحلول الناجحة لها.

٢- جنوح الأحداث

تشير الدراسات التي أجريت على الأطفال الجانحين، أن الجنوح يشيع بين الأطفال الذين دخلوا سوق العمل مبكرًا[٣]، مقارنة بأقرانهم.

إذا نحن بحثنا عن الأسباب التي تجعل هؤلاء أكثر تعرضًا للجنوح من غيرهم، وجدنا أن غياب السلطة الأبوية، عُدَّ سببًا رئيسًا في تهيئة الطفل لأن يكون جانحًا، ذلك أن غياب الأب عن المنزل لأغلب ساعات النهار، يعني غياب النموذج الذي ينمذج سلوكه وفقًا له، ولما كان النموذج غائبًا ولم يكن ثمة بديل في حياته يحل محله، فإن الطفل سيشكل سلوكه في الواقع، استنادًا إلى النماذج الموجودة في محيطه الاجتماعي، ولا سيما إذا كانت هذه النماذج منحرفة، لذا يصبح من السهل على الشلل الجانحة أن تجتذبه إليها[٤].

ومما له دلالة في هذا الصدد، أن فاعلية السلطة الأبوية لا تعتمد على حضورها المادي أمام ناظري الطفل، بل إن فاعليتها تعتمد على أساليب التنشئة التي تتبعها هذه السلطة، فضلًا عن أساليب الإرشاد والتوجيه. تلك الأساليب هي التي تجعل من السلطة الأبوية فاعلة في تعديل السلوك.

٣- زيادة معدلات الإصابة بالاضطرابات النفسية والعقلية

لوحظ، على الأطفال الذين انشغل آباؤهم وأمهاتهم بسبل تدبير المعيشة، أنهم كانوا أكثر من غيرهم تعرضًا للاضطرابات النفسية والعقلية؛ ولعل سبب ذلك يعود، إلى شعور هؤلاء الأطفال بالحرمان وعدم التمتع بمباهج الحياة التي يحظى بها غيرهم، عند مقارنة أوضاعهم الحالية بأوضاع الغير، مما يسبب لهم شعورًا بعدم الأهمية، فضلًا عن التعرض إلى خبرات مؤلمة أثناء التعامل اليومي مع الآخرين، وهو الأمر الذي يعني أن الطفل سيعاني لوحده من

بعض الاضطرابات النفسية أو العقلية التي يصعب على الغير ملاحظتها، وحتى في حال ملاحظة الأبوين مثل هذه الاضطرابات، فقد يصعب عليهم إيجاد التفسيرات المنطقية لها، وأحيانًا تفسير على أساس أن طفلهما مشكل أو يصطنع بعض المشكلات لنفسه.

والأخطر من ذلك، أن عدم إحاطة الطفل بالرعاية الأبوية، وهو لم يزل بعد في بداية الاضطراب، سيؤدي إلى تدهور أحواله الشخصية، وسيكشف عن اضطراباته التي يعاني منها بعديد من المظاهر السلوكية، ولعل من أبرزها: الاكتئاب والحزن والخمول والتبول اللاإرادي والصراخ أثناء الليل مصحوبًا بكوابيس[٥] والاعتداء على الغير والعزلة والانطواء، وربما يتطور الأمر إلى الإدمان على بعض العقاقير أو استنشاق المواد الصمغية على سبيل المثال، بعد أن يلتقي بثلة من المنحرفين. إذ يزينون له المتعة والتسلية والهروب من واقعه المؤلم بمجرد تعاطي مثل هذه المواد.

وستكون العاقبة، زيادة في التدهور النفسي بدرجة لافتة للانتباه، وإن استمر الإهمال الأبوي وعدم الانتباه إلى الاضطرابات التي يعاني منها الطفل، سنجد نسبة لا يستهان بها من الأطفال والمراهقين يعانون من الاضطرابات النفسية والعقلية، مما يعني أن المجتمع سيتعرض على مزيد من المشكلات، تأتي في مقدمتها: تدهور الصحة النفسية لأطفاله.

٤- التسول

لا بد من الإشارة هنا، إلى أن ثبات الدخول مع ازدياد الأسعار، قد جعل الكثير من أفراد المجتمع يعانون من ضائقة حقيقية في المعيشة، ولمعالجة هذه الضائقة، لجأت بعض الأسر إلى تشغيل أبنائها في أعمال هامشية مختلفة أو اضطرار كل من الأب والأم إلى العمل المستمر لمواكبة الغلاء المتزايد أو اللجوء إلى السؤال وطلب المعونة من الآخرين، ولقد عُد ذلك حلًّا معيشيًّا.

فلقد بدأنا نشاهد جماعات من الصغار تفترش الأرصفة، ومنها أرصفة الإشارة الضوئية أو إزاء المحال التجارية أو في الأسواق، بعد أن سجل التسول معدلات ضئيلة في المجتمع في أوقات سابقة.

إن مما يجب الإشارة إليه في هذا الصدد، أن الأفراد الذين كانوا يلجأون إلى التسول، هم أولئك الذين يتمتعون بخصائص نفسية واجتماعية تمكنهم من التماس السؤال من الآخرين، وهو أمر متوقع في ظروف اليسر الاقتصادي، بيد أن ظروف العسر الاقتصادي جعلت من السهل على الأفراد تحصيل الرزق عن طريق التسول، بعد أن ضاقت بهم سبل العيش. وآية ذلك، فإن التسول أخذ يشيع في المجتمع، إثر شيوع نماذج سلبية من البشر التي هيأت بدورها مناخًا مناسبًا لتقبل التسول. وفي بعض الأحيان، نجد أن الأفراد في المجتمع يقدمون بعض المسوغات المنطقية لشيوعه؛ وبسبب ازدياد معدلات التضخم المالي واستمرار الأزمة الاقتصادية إلى أجل غير مسمى، فلقد أصبح التسول مؤسسيًا، وهذا معناه أن هنالك مؤسسات إن صح التعبير، تدير التسول وتشرف عليه؛ وذلك بالاتفاق مع المتسولين أنفسهم أو الإتيان بأشخاص يعملون بصفة متسولين دون حياء، مقابل تقديم الأجور المغرية لهم مع ضمان سبل حمايتهم من الآخرين أو من السلطات عندما يقعون في مأزق.

إلى جانب ذلك، فإن هذه المؤسسات تؤمنّ لهم النقل إلى منازله والمجيء بهم إلى الأماكن التي يتسولون فيها. كما اتضح، إن هذه المؤسسات تتخذ من الشقق السكنية في العمارات أو من الدور السكنية، مكانًا مناسبًا لممارسة أعمالها، سواء في توزيع المتسولين على الأماكن الجغرافية أو لأغراض المحاسبة أو استقدام الإجراء، ولقد اتخذت هذه المؤسسات من ممارسة التجارة أو المقاولات نشاطًا علنيًا لها؛ لكي تكون بمنأى عن مساءلة السلطات.

٥- ضعف التدرج الهرمي للسلطة في الأسرة

معروف أن الأسرة العربية تتأثر كثيرًا بالتراتب العمري[٦]، بمعنى أن الشخص الأكبر سنًّا، وهو عادة ما يكون الأب أو من يحل محله، هو الشخص الذي يتمتع بالمكانة والنفوذ داخل أسرته، أما الأبناء فهم الأتباع ومن الواجب عليهم أن يظهروا فروض الطاعة والولاء له، فهو المتخذ الأول للقرارات، وهو الخبير الأول والناصح والموجه والمرشد داخل الأسرة، بيد أن هذه الهرمية أخذت بالضعف إثر الأزمة الاقتصادية التي يمر بها المجتمع.

إذا نحن بحثنا عن الأسباب التي أدت إلى ضعف هرمية السلطة داخل الأسرة، وجدنا أن العامل الاقتصادي أسهم بدرجة كبيرة في إضعافها، فالأب كما قلنا: هو الشخص المهيمن في أسرته وهو الناصح والموجه، وهو علاوة على ذلك، هو الشخص الممول لأسرته ماديًّا، وهو الذي يتدبر سبل المعيشة ما دام حيًّا، غير أن الأزمة الاقتصادية وما ترتب عليها من تصاعد مستمر في الأسعار، قد أثر ذلك على دخله، ولم يعد بالإمكان تدبير المعيشة لأفراد أسرته وهو الأمر الذي أدى إلى بيع الممتلكات الشخصية والأسرية بأثمان لم تمكنه من الصمود إلا قليلًا.

وكان لزامًا، أن يلجأ إلى تشغيل بعض الأبناء في أعمال هامشية تساعد على سد بعض الاحتياجات الأسرية، وعند انخراط هؤلاء الأبناء بسوق العمل واكتساب مهارات التعامل معه، توسع هؤلاء قليلًا، مما أدى إلى الإسهام بميزانية الأسرة بنسبة كبيرة جدًّا تفوق نسبة دخل الأب. وكانت عاقبة ذلك أن سلطة الأب قد ضعفت في فرض هيمنتها على الأبناء، إذ لم يتمكن الأب من فرض سلطته، سواء بالتوجيه والإرشاد أو بالإرغام التي يستهدف من ورائها تعديل سلوكهم، عندما يرتكبون مخالفات قانونية أو اجتماعية، وأثر الأوضاع المعيشية التي مرت بها الأسرة قد أدت إلى اضطراب هرمية السلطة.

وهنا تكمن الخطورة! ويمكن تشخيص بعض ملامح هذه الخطورة على النحو الآتي:

أ- إن إضعاف هرمية السلطة داخل الأسرة، ستزيد من حالات المخالفة للمعايير الاجتماعية، وهذا يعني أن الأب لن يؤدي دور الرقيب كما كان سابقًا، في رصد حالات المخالفة التي يلاحظها في سلوك أبنائه، وهو الأمر الذي يعني أن المجتمع قد فقد إحدى أساليب الضبط الاجتماعي السائدة فيه.

ب-وقد يترتب على إضعاف هرمية السلطة، ضعف العلاقات الاجتماعية السائدة بين أفراد الأسرة الواحدة، ذلك أن الأب هو الذي يؤدي الدور الفاعل في تقوية العلاقات بين أفراد أسرته في حالات فتورها أو تأزمها، فيعمد إلى حث هذا الطرف أو ذاك إلى تخفيف الغلواء والتسامح أو تقديم الإسناد الاجتماعي في الحالات التي يكون فيها أحد الأطراف بحاجة إلى الإسناد.

٦- إضعاف المفاهيم الدالة على الأبوة والأمومة

يلاحظ على الأطفال الذين ينشغل آباؤهم وأمهاتهم بسبل تدبير المعيشة، أنهم يتميزون بضعف واضح للمفاهيم الدالة على الأبوة والأمومة؛ ولعل ذلك يرجع إلى أن الضغوط المترتبة على الأزمة لم تيسر الوقت الكافي للحديث مع الأبناء أو إرشادهم في المشكلات التي يعانون منها أو إحاطتهم بالدفء الأبوي المطلوب، ولقد أدى ذلك إلى أن يكون الأب من وجهة نظرهم شخصًا يشبع لهم حاجاتهم المادية فحسب، أما الحاجات النفسية المتمثلة بالدفء والتعاطف والأبوة وتجاذب الحديث في قضايا حياتية شتى، فإنه غير قادر على إشباعها، وهو الأمر الذي يعني أن الأبناء في هذه السن المبكرة، قد يكوِّنون مفهومًا عن الأب يتسم بالتشوش وعدم الوضوح.

كذلك تكون الأم هي الأخرى شخصًا هامشيًّا، ولما كانت كذلك فهي غير قادرة على إشباع الحاجات النفسية للأبناء، ولا سيما الحاجات المرتبطة بالأمومة، على أن استمرار هامشية الأم، سيؤدي إلى إضعاف مفهوم الأمومة لدى الأبناء، وربما تدرك فيما بعد أنها امرأة حالها حال النساء الأخريات اللواتي يلتقون بهن في التنظيمات الاجتماعية، مما يعني انفصام العلاقة العاطفية بينها وبين أبنائها.

وهنا نصل إلى مسألة لا بد من الإشارة إليها وهي أن إضعاف المفاهيم الدالة على الأمومة والأبوة، يترتب عليها عدد من المشكلات النفسية، نذكر منها: ضعف التحسس بآلام الآخرين، كذلك يلاحظ على الأطفال الذين تعرضوا إلى الإهمال من جانب الأبوين، أن تصبح القسوة والشدة سمة شخصية ملازمة لسلوكهم، تلك القسوة والشدة التي تكتسب في غيبة التأثير الأبوي الفاعل. وعلى ذلك، فإن انشغال الأبوين والأبناء بعضهما عن بعض، سيجعل الصغار يكونون مفاهيم مشوشة وغير واضحة عن الأبوة والأمومة عند التقدم في العمر.

٧- إشاعة أنساق قيمية وافدة

بات واضحًا، أن الأزمة الاقتصادية، عمدت إلى تغيير النسق القيمي لدى الصغار، وإذا نحن أمعنا النظر في النسق القيمي الذي يحملونه، وجدنا أنه يتناسب مع مقتضيات الأزمة الاقتصادية، إذ يؤكد مضمون هذا النسق الاغتراب عن المجتمع والمنفعة المادية أثناء التفاعل الاجتماعي والقهر وعدم الاكتراث بالإنجاز، فضلًا عن تأكيد المخالفة للقواعد الخلقية؛ ولعل ذلك يعود إلى أن الأزمة قد أوجدت وضعية اجتماعية تنطوي على الفوضى وغياب التنظيم مما جعل الناس تعيد النظر في أولوياتها الحياتية.

فلقد أعطيت الأولوية لمستلزمات المعيشة، لما لها من أهمية في المحافظة على

بقائهم في الحياة، أو بمعنى آخر أن التنازع من أجل البقاء، دفع بالناس إلى التركيز على هذه الأولوية دون غيرها، وقد ترتب على ذلك التخلي عن الأنساق القيمية السائدة، إذ إنها لم تعد تنسجم مع ظروف الأزمة ومقتضياتها.

نشير في هذا السياق، إلى أن إحدى الدراسات التي أجريت على المراهقين العاملين في مهن مختلفة وأقرانهم من الذين يواصلون الدراسة، توصلت إلى أن المراهقين الذين يواصلون دراستهم، حصلوا على درجات أعلى من أقرانهم العاملين في القيم الاجتماعية والأخلاقية والعلمية والدينية والجمالية، بينما حصل المراهقون من العاملين على درجات أعلى من أقرانهم في القيم الاقتصادية[٧].

وهذا يشير إلى أن انتظام الصغار مبكرًا في سوق العمل، قد أضعف من تأكيد الأنساق القيمية المفضلة، في حين زاد الانتظام في سوق العمل من تأكيد الأنساق غير المفضلة.

وعلى خلاف ذلك، زاد الانتظام في الدراسة من تأكيد الإنساق القيمية المفضلة، وفي الوقت نفسه أضعف من تأكيد الأنساق غير المفضلة، ولا سيما عند المقارنة بين هاتين الفئتين من الصغار.

وتأسيسًا على ما سبق، يمكن القول: إن الأنساق القيمية الوافدة التي شاعت بين الصغار، ولا سيما أولئك الذين يعانون من البؤس والحرمان، إنما هي نتاج عملية التعلم الاجتماعي في بيئة مضطربة.

٨- إشاعة عدم الرضا عن الحياة

لعل من الآثار النفسية المترتبة على الأزمة الاقتصادية، هو ازدياد مشاعر السخط والتبرم وعدم الرضا عن الحياة بين صفوف الصغار، وإذا نحن تابعنا أسباب عدم الرضا عن الحياة لدى هذه الفئة العمرية، وجدنا أن انشغالها

بالعمل في وقت مبكر من الحياة، قد أفضى إلى إحساسها بالتعب والإنهاك والإعياء كذلك فإن عدم شعورها بالتمتع بمباهج الحياة في هذه المرحلة من العمر، قد زاد من تبرمها وسخطها، ومن ثم عدم الرضا عن حياتها.

ومما زاد من عدم رضاها عن حياتها، أنها بدأت بعقد مقارنة بين أولئك الذين يعيشون حياة أسرية دافئة إلى جانب التمتع بملذات الحياة، وبين حياتها الأسرية التي تفتقر إلى الدفء والتعاطف، فضلًا عن المعاناة من الحرمان، ونتوقع من هذه الفئة، أنها انتهت من خلال هذه المقارنة، إلى نتيجة مفادها: التبرم من الحرمان والحسرة والحسد وتمني الحياة الهانئة التي يعيشها الآخر.

ولعل العواقب المترتبة على إشاعة مثل هذه المشاعر: انتشار التحايل على الآخرين ومحاولة إيقاع بعضهم في مشكلات عويصة؛ للنيل من سمعتهم والتمتع بآلامهم أو توريطهم في مخالفات قانونية أو تزيين عالم الانحراف لهم؛ بقصد جعله مقبولًا لديهم.

٩- إضعاف قدرة الصغار على التعاطف الإنساني

لوحظ أن انشغال الأبوين بهموم المعيشة، قد أدى إلى إهمال الصغار من الناحية النفسية، وهذا بدوره سيفضي إلى تنمية حالة من اللا اكتراث بالآخرين، فضلًا عن صعوبة التحسس بمعاناتهم عندما يقعون في أزمة أو طارئ، وبالمحصلة النهائية سينشأ لدينا أطفال غير قادرين على الشعور بالدفء والمودة أو منحها للآخرين، ولقد وجد أن الأطفال الذين تربوا في مؤسسات الإيداع، لم يتمكنوا من تكوين علاقات عاطفية مع الآخرين أو أنهم غير قادرين على إنماء مشاعر المودة والتعاطف[٨]، بل كانوا يتفاعلون مع أولئك الذين يحيطون بهم بحالة من البرود وعدم الاكتراث والجفاء.

وهنا تكمن الخطورة؛ إذ تشير الدراسات إلى أن هؤلاء كانوا أقل ضبطًا

للنفس وأشد اندفاعًا، ومثل هذه الخصائص الشخصية[٩]، ربما تهيئ أصحابها لارتكاب جرائم مضادة للمجتمع دون أن يرف لهم جفن.

١٠- إضعاف المهارات الاجتماعية

معروف أن الطفل يأتي إلى الدنيا وهو كائن بيولوجي لا اجتماعي، بيد أنه يصبح كائنًا اجتماعيًّا بفعل عمليات التعلم الاجتماعي الحادثة في الثقافة التي يعيش بين ظهرانيها؛ ولعل المهارات الاجتماعية، تعد إحدى هذه العمليات، فلقد وجد أن إجادة المهارات الاجتماعية تمكن الطفل من أن يكون متوافقًا مع محيطه الاجتماعي، فضلًا عن شعوره بالكفاءة بين زملائه الذين يشاركونه التنظيم الاجتماعي، على أنه إجادة هذه المهارات، إنما يعتمد بالدرجة الأساسية على علميات التذريب التي يتبعها الأبوان، إلى جانب ملاحظته أثناء تأديته لهذه المهارات؛ بهدف تعزيز الصائب منها، عندما يؤديها بشكل صحيح، وتعديل الخاطئ منها، عند تأديتها بشكل خاطئ.

وكل ذلك يتم في حالة وجود اتصال مستمر بين الأبوين والطفل، أما في حالة انقطاع الاتصال الحادث بين الطرفين، يصبح من المتعذر على الطفل أن يلم بتفاصيل المهارات الاجتماعية المطلوبة، مما يفضي إلى اكتسابه مهارات اجتماعية غير سوية، أي: مهارات شاذة عن السوية الاجتماعية.

وما يهمنا هنا، أن ضعف اكتساب المهارات الاجتماعية، سيفضي إلى جملة من المشكلات النفسية ولعل من أهمها:

أ- إن ضعف اكتساب المهارات الاجتماعية، سيجعل الطفل يعاني مستقبلًا من عدم إجادته لقواعد الأدب الاجتماعي، تلك القواعد التي تساعده على التمييز بين الأنماط السلوكية المقبولة اجتماعيًّا والأنماط التي لا تحظى بالقبول الاجتماعي. كذلك فإن إجادة هذه القواعد، ستمكنه من انتقاء

التصرفات المناسبة لكل موقف اجتماعي، وعلى ذلك، فإن عدم إجادة هذه القواعد، ستجعل الطفل غير قادر على التمييز بين الأنماط السلوكية المقبولة منها وغير المقبولة من الناحية الاجتماعية.

ب- ولعل عملية التفاعل الاجتماعي التي تستند إلى فكرة الأخذ والعطاء، تعد إحدى المهارات الاجتماعية التي ينبغي على الطفل إجادتها؛ وذلك يتم من خلال الحضور الفاعل للأبوين ومحاولة شرح فكرة هذه المهارات سواء أثناء اللعب مع أقرانه أو أثناء التعامل مع الآخرين. وآية ذلك، فإن عدم اكتساب مهارة الأخذ والعطاء، ستقلل من التوافق الاجتماعي للطفل في المستقبل المنظور، فضلًا عن شعوره بالنبذ الاجتماعي.

ج- ومما يترتب على عدم اكتساب المهارات الاجتماعية، أن الطفل سيكون غير عادل أثناء التفاعل الاجتماعي في المستقبل المنظور؛ وذلك لعدم قدرته على التمييز بين المواقف التي تستحق ثوابًا وتلك التي تستحق عقابًا، وحتى يكون عادلًا في حياته المقبلة، لا بد من إجادة هذه المهارات.

د- كما أن عدم اكتساب المهارات الاجتماعية، ستجعل الطفل غير قادر على ضبط نفسه في المواقف التي تستدعي ضبط النفس. وبطبيعة الحال، سيفضي ذلك إلى عدد من المشكلات النفسية، ومن بينها: الاندفاع والتهور والاعتداء على الآخرين، سواء أكان هذا الاعتداء لفظيًّا أم بدنيًّا، إلى جانب الشعور بالضيق والغضب في حالة عدم الاتفاق مع الآخرين.

هـ- ومن المشكلات النفسية المترتبة على عدم اكتساب المهارات الاجتماعية، أن الطفل سيعاني في المستقبل القريب، من صعوبة انتقاء الألفاظ المناسبة للمواقف الاجتماعية؛ وذلك يرجع أساسًا، إلى أن الطفل الذي يقضي معظم ساعات النهار خارج المنزل، وسيجد صعوبة في التمييز بين

المواقف الاجتماعية المختلفة، مما يترتب على ذلك، صعوبة انتقاء الألفاظ المناسبة لكل منها، وهو الأمر الذي يشعره بالضيق والحرج جراء التعرض إلى مواقف اجتماعية غير مألوفة لديه، فضلًا عن زيادة الألفاظ النابية والبذيئة في محصوله اللفظي.

التوقعات المستقبلية للآثار النفسية

من المفيد الإشارة هنا، إلى أن رصد التوقعات المستقبلية للآثار النفسية المترتبة على تعرض الأطفال للأزمة الاقتصادية واحتمال زيادتها أو نقصانها، إنما يعتمد بطبيعة الحال، على عدد من المؤشرات، وفي هذا السياق، سنستعرض أهمها:

١- دوام الأزمة.
٢- فاعلية الأسرة في تعديل سلوك الطفل.
٣- فاعلية المؤسسة التربوية في تعديل سلوك الأطفال.
٤- التشريعات القانونية.

والآن نفصل القول في هذه المؤشرات لمعرفة نوع الآثار النفسية التي سترافق الأطفال ودرجة شدتها على المدى المنظور.

١- دوام الأزمة

إن الآثار النفسية التي يتعرض لها الأطفال ستزداد حدة، إن استمرت الأزمة الاقتصادية لفترة زمنية قادمة، ذلك أن بقاء الحال على ما هو عليه، لن يتيح لأساليب الضبط الاجتماعي أن تمارس تأثيرًا فاعلًا في تعديل سلوك الصغار. وعلى ذلك، فإن استمرار الأزمة الاقتصادية، مع غياب واضح لدور الأبوين في عملية التعديل السلوكي، سيزيد من حدة الآثار النفسية، وربما ستكون هناك آثار نفسية أخرى، غير تلك التي عرضنا لها في سياق هذه الدراسة.

٢- فاعلية الأسرة في تعديل سلوك الأطفال

تعتمد فاعلية الأسرة في تعديل سلوك الأطفال على طبيعة أساليب التنشئة، إلى جانب أساليب التوجيه والإرشاد.

والحقيقة، أن أساليب التنشئة والإرشاد تعتمد بدورها على فاعلية السلطة الوالدية، فكلما كانت السلطة الوالدية فاعلة في حضورها، مالت إلى اتباع أساليب في التنشئة تنطوي على الحزم والدفء، ولعل الأمر نفسه، ينطبق على أساليب التوجيه والإرشاد، فكلما كانت السلطة الوالدية فاعلة في اتباع الأساليب الإرشادية السليمة، أحدثت تعديلًا في سلوك أبنائها، ولا سيما في الحالات التي تستدعي التدخل لإحداث التعديل السلوكي المطلوب. وعلى ذلك، فإن الآثار النفسية التي يتعرض له الأطفال في الوقت الحاضر، ستستمر في المستقبل المنظور؛ بسبب ضعف فاعلية السلطة الوالدية لدى بعض الأسر، فضلًا عن أن هذه الآثار ستزداد حدة.

٣- فاعلية المؤسسة التربوية في تعديل سلوك الأطفال

تعد المؤسسة التربوية فاعلة، في حالة تمكنها من إيجاد الحلول المناسبة للمعضلة التربوية التي تعاني منها، تلك المعضلة التي تتألف من الأطراف الثلاثة: المعلم والمتعلم والمنهج الدراسي.

وعلى ذلك، نقول: إن المؤسسة التربوية لم تعد فاعلة في الوقت الحاضر، ولما كانت كذلك، فهي غير قادرة على تعديل السلوك، وحتى تكون هذه المؤسسة فاعلة، لا بد من إيجاد الحلول الناجمة لعدد من المشكلات التي يعاني منها كل من المعلم والمتعلم؛ لكي ينصرف كل منهما إلى العمل المدرسي. كذلك ينبغي إعادة النظر في المنهج الدراسي، بحيث يكون الخطاب الوارد فيه لا يتناقض مع معطيات الواقع اليومي للمتعلم، إلى جانب إضفاء قدر من الجاذبية على هذا الخطاب، ومن الضروري أن يبتعد الخطاب الوارد في المنهج

الدراسي عن التقريرية والمباشرة؛ لكي يجذب انتباه المتعلم أولًا، ومن ثم يجنب المعلم حالة الملل والسأم ثانيًا.

٤- التشريعات القانونية

إن تشريع القوانين التي من شأنها، أن تلتزم الأسرة برعاية أبنائها وعدم تركهم يواجهون مصيرهم بأنفسهم، مقابل تقديم الإعانات المطلوبة؛ بهدف مساعدتها على مواجهة مقتضيات المعيشة، ستؤدي مثل هذه التشريعات إلى تقليل الآثار النفسية، ومن ثم تقليل حدتها. أما بقاء الحال على ما هو عليه، سيفضي ذلك إلى مزيد من المشكلات النفسية، تلك المشكلات التي ستكون أكثر حدة في المستقبل المنظور.

الهوامـــش

(١) محمود شمال حسن. ضغوط الحياة ومقتضيات العصرنة. دراسات اجتماعية، السنة ٢، العدد ٦، (صيف ٢٠٠٢)، ص ٧٠.

(٢) محمود شمال حسن. النسق القيمي وخطاب الأزمة الاقتصادية. المستقبل العربي، السنة ٢٦، العدد ٢٩٨، (كانون الأول – ديسمبر ٢٠٠٣)، ص ٤٠.

محمود شمال حسن: دراسة مقارنة في الخصائص النفسية بين المتسربين من الدراسة وأقرانهم. مجلة الطفولة (البحرين)، العدد ٧ (٢٠٠٢)، ص ٩٢.

(٣) محمد عارف. الجريمة في المجتمع: نقد منهجي لتفسر السلوك الإجرامي. (القاهرة: مكتبة الأنجلو، ١٩٧٥)، ص ٥٦٩.

(٤) محمود شمال حسن. سيكولوجية الفرد في المجتمع: مدخل، ط١. (القاهرة: دار الآفاق العربية، ٢٠٠١)، ص ١٥٠، ١٥١.

(٥) محمود شمال حسن.-وضعيات السلوك البشري أثناء وقوع الكارثة وما بعدها. الموقف الثقافي، السنة ٤، العدد ٢٤. (تشرين الثاني- كانون الأول، ١٩٩٩)، ص ٣٧.

(٦) قيس النوري. الأسرة مشروعًا تنمويًا. (بغداد: دار الشئون الثقافية العامة، سلسلة آفاق، ١٩٩٤)، ص ١٠٨.

(٧) علي عودة الحلفي. دراسة مقارنة في القيم بين المراهقين العاملين وأقرانهم غير العاملين. (بغداد: الجامعة المستنصرية، أطروحة دكتوراه غير منشورة، ١٩٩٨)، ص ٨٤-٩٩.

(8) J.C. Coleman and W.E. Broen. Abnormal (n) Psychology and modern life, 4th ed. (Glen View: Scott, foresman and company, 1972), p. 151.

(٩) بول موسون وآخرون. أسس سيكولوجية الطفولة والمراهقة، ط١، ترجمة أحمد عبد العزيز سلامة. (الكويت: مكتبة الفلاح، ١٩٨٦)، ص ٣٦٨.

غياب الأب وأثره
في التنميط الجنسي
للأطفال الذكور

المقدمة

لا نبالغ إذا قلنا: إن إجادة الطفل لدوره الجنسي المرتقب، يفضي إلى شعوره بالرضا عن نفسه؛ لكونه يتصرف بطريقة ترضي أقرانه عنه، فضلًا عن تجنُّب حالات السخرية والنقد التي توجه إليه، نتيجة خرقه لقواعد الدور الجنسي المتفق عليها، على أن إجادة الطفل لدوره الجنسي، يعتمد على وجود الأب أو بديله من الذكور إذا كان الأب غائبًا؛ ذلك أن وجود الأب مع الطفل سيفضي بطبيعة الحال إلى تعليمه دوره الجنسي، وذلك بعديد من الطرق منها على سبيل المثال:

ملاحظة الأنماط السلوكية الصادرة عنه، وهنا يبرز دور الأب بشكل فاعل، إذ يعمد إلى تعديل بعض الأنماط السلوكية التي لا تنسجم مع قواعد الدور الجنسي المتعارف عليها في الثقافة السائدة.

كذلك يعمد الأب أو بديله إلى تعليم الأنماط السلوكية المقننة للذكور، بعبارة أخرى التصرفات الدالة على جنسه عندما يلاحظ أنه أخذ يبتعد عن السياق الجنسي المألوف.

كما يعمد الأب أو بديله إلى إرشاد الطفل فيما يخص الألعاب المناسبة لجنسه، إلى جانب تعليمه الألفاظ المناسبة التي ينبغي الالتزام بها، والنهي عن النطق بالألفاظ التي تعود إلى الجنس الآخر.

وهنا نصل إلى مسألة لا بد من الإشارة إليها وهي؛ أن غياب الأب عن الطفل، ولاسيما في السنوات الخمس الأولى، سيفضي بمرور الوقت إلى إضعاف ذكورته، مما يترتب على ذلك جملة من الآثار النفسية نذكر من أهمها:

الجنوح والجنسية المثلية، والميل إلى النمط الأنثوي، فضلًا عن عدم قدرته على التوافق مع المحيط الاجتماعي.

إن ثمة مسوغات تُبرز الحاجة إلى البحث الحالي وفي هذا السياق نشير إلى أهمها:-

١- إن المجتمع العراقي شهد حروبًا مدمرة في عقدي الثمانينات والتسعينيات، وقد أدت هذه الحروب إلى فقدان الكثير من الذكور، انطلاقًا من أن العمليات العسكرية أو القتال المسلح لما يزل بعد نشاطًا ذكوريًّا؛ ولما كان القتال أو الحرب نشاطًا ذكوريًّا، فمن الطبيعي -والحال هذه- أن يفقد المجتمع نسبة من ذكوره، ومن ثم يغدو منطقيًّا جراء هذه الوفيات أن يتخلخل الهرم الجنسي للسكان.

وما يهمنا هنا: أن الحرب قد تؤدي إلى فقدان الكثير من الذكور، وربما تكون الغالبية منهم أرباب أسر؛ وفقدان ربِّ الأسرة يعني -بين ما يعني- أن الأسرة فقدت مُعيلها أو المدبر لشئونها؛ ولعل غيابه قد أفضى إلى تعرض الأطفال -ومنهم الذكور على وجه التحديد- إلى جملة من المشكلات النفسية، وفي مقدمتها، صعوبة تكوين مفهوم واضح عن الذات الذكرية.

ولقد أشارت إلى تلك المشكلة عدد من الندوات العلمية التي عقدت في هذا الصدد، وكانت تستهدف تشخيص الآثار النفسية المترتبة على غياب الأب عن الأطفال، فضلًا عن الملاحظات الميدانية التي تلمس من خلالها الباحث تلك المشكلة التي أخذت بالذيوع والانتشار على مستوى الأسر التي غاب عنها الأب.

٢- مما ترتب على هذه الحروب أنها أفضت إلى إحلال الأم محل الأب، ولعل هذا الإحلال جاء نتيجة غياب بديل الأب من الذكور لأسباب لا يتسع المقام هنا لتفصيل القول فيها نقول:

إنه بسبب توالي الحروب على المجتمع؛ أفضت إلى تأنيث الأسر التي غاب

عنها الذكور، وهو الأمر الذي وضع الأم أمام خيارين اثنين لا ثالث لهما: فإما المحافظة على تماسك الأسرة، وهذا يعني قبولها بأداء أدوار ذكرية من قبيل ضبط الأطفال على طريقتها الأنثوية في ميدان التفاعل الاجتماعي اليومي.

وإما القبول بتفكك الأسرة -ويبدو أن نسبة كبيرة من الأمهات قد فضلن الخيار الأول- بيد أن تفضيل هذا الخيار، قد تسبب بعدد من المشكلات، نذكر منها على سبيل المثال:

صعوبة تعليم الأطفال الذكور دورهم الجنسي المرتقب.

كذلك أخذت نسبة منهن تغض الطرف عن بعض المخالفات السلوكية الصادرة عن هؤلاء الأطفال؛ نتيجة شعورهن بالتعب والإرهاق، إلى جانب شعورهن بالملل من المسئوليات الجديدة.

٣- ولعل من المسوغات التي تُبرز الحاجة إلى إجراء مثل هذا البحث تنامي الشكاوى بين صفوف بعض الأمهات تفيد أن أطفالهن يتصفون بضعف واضح في دورهم الجنسي؛ وذلك لعدم مطابقته لأولئك الذي يعيشون مع آبائهم.

كما تفيد هذه الشكاوى من بروز حالة من التخنث في سلوك أبنائهن، عندما بلغوا سنَّ المراهقة، ولعل في هذه الشكوى وغيرها، وما يشير إلى أن غياب الأب في فترة مبكرة من عمر الطفل، يحدث أثرًا سلبيًّا في سلوكه الجنسي على وجه التحديد.

الخلفية النظرية للتنميط الجنسي

مفهوم التنميط الجنسي

لعل أحد التعريفات الدالة على التنميط الجنسي Sex- Typing هو العملية التي يتم بمقتضاها أن يُظْهر الذكر سمات ذكرية تقاليدية، أو تُظْهر الأنثى سمات أنثوية تقاليدية(١).

إن هذا التعريف يشير بشكل صريح أن غاية التنميط الجنسي هو اكتساب الخصائص الجنسية المرتبطة بالذكر والأنثى، تلك الخصائص التي تنسجم مع التقاليد السائدة؛ وبذلك فإن الخصائص الجنسية لكل من الجنسين تشكل استنادًا إلى التقاليد السائدة.

وتعريف آخر يرى في التنميط الجنسي العملية التي يكتسب من خلالها الأطفال القيم والدوافع وأنماط السلوك، تلك العملية التي تكون مناسبة للذكور أو الإناث في ثقافة معينة(٢).

إذا نحن تمعنا في هذا التعريف، وجدنا أن التنميط الجنسي للأفراد في ثقافة معينة، إنما يعتمد على اكتسابهم أنماطًا سلوكية معينة، إلى جانب اكتسابهم مجموعة من الدوافع والقيم من نوع معين، وعلى ذلك فإن هذا التعريف يكاد يتطابق مع التعريف الأول في الفكرة القائلة: إن السلوك الجنسي للأفراد يتشكل بفعل التقاليد السائدة أو الثقافة السائدة.

ويعرف التنميط الجنسي من وجهة نظر ثالثة بأنه: عملية اصطناع المعتقدات والاتجاهات وأوجه النشاط التي تحكم الحضارة التي ينشأ فيها الطفل، بأنها مناسبة للجنس الذي ينتمي إليه(٣).

والحقيقة أن هذا التعريف لا يخرج عن سياق الفكرة التي طرحها كلٌّ من

التعريف الأول والتعريف الثاني، إذ لما يزل بعد ينظر إلى التنميط الجنسي على أنه عملية اجتماعية تستهدف إعداد الأفراد للأدوار الملائمة للجنس الذي ينتمون إليه.

ومن وجهة نظر رابعة يعرف التنميط الجنسي على أنه: عملية اكتساب الفرد لما يلائم جنسه من الخصائص والاستجابات[٤]؛ والمتمعن لهذا التعريف يجده لا يضيف شيئًا عما ذكر في التعريفات التي أشرنا إليها، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على أن التنميط الجنسي عملية اجتماعية، يراد منها تشكيل السلوك الجنسي للأفراد طبقًا للمعتقدات السائدة في الثقافة.

نخلص إلى القول: إن التعريفات التي مرَّ ذكرها تشير إلى:

١ - أن التنميط الجنسي هو العملية التي يكتسب من خلالها الأفراد خصائص جنسهم تلك الخصائص التي تؤكدها الثقافة السائدة.

٢ - ومن أجل أن تكتسب هذه الخصائص يقتضي الأمر تبنِّي القيم التي تدعو إليها الثقافة السائدة والدوافع التي تركز عليها، فضلًا عن مجاورة الأنماط السلوكية السائدة ولا سيما تلك ا لمرتبطة بالجنس.

وتأسيسًا على ما سبق يمكن القول: إن التنميط الجنسي عملية اجتماعية يراد منها اكتساب الخصائص الدالة على الجنس الذي ينتمي إليه الفرد، تلك الخصائص التي تنسجم مع المعايير السائدة في الثقافة.

المنطلقات النظرية لتفسير التنميط الجنسي

تشير الأدبيات في هذا الصدد، أن التنميط الجنسي، فُسِّر بعدد من النظريات النفسية، وهنا نشير إلى أهمها:

١- نظرية التوحد.

٢- نظرية التعلم بالملاحظة.

٣- النظرية المعرفية الارتقائية.

٤- نظرية المخطط الجنسي.

١- نظرية التوحُّد

تُفسَّر عملية التنميط الجنسي من وجهة النظر الفرويدية من خلال العملية النفسية التي يطلق عليها (التوحد Identification) والمقصود بالتوحد هنا: تلك العملية اللاشعورية التي يتم بمقتضاها ميل الطفل إلى التشبه بالوالد المماثل له في الجنس.

ولكن كيف يحدث هذا التشبه؟ وفي أي عمر يحدث على وجه التحديد؟

إذا نحن عدنا إلى مراحل التطور النفسي -الجنسي وجدنا أن التوحد يحدث في المرحلة القضيبية[٥] على وجه التحديد، إذ تكون لدى الطفل في هذه المرحلة رغبة لا شعورية في الاتصال الجنسي مع الوالد المخالف له في الجنس، وهنا يبدأ الصراع الأوديبي بالظهور؛ وذلك لوجود رغبة لدى الطفل تدفعه إلى امتلاك الوالد من الجنس الآخر، والتخلص من الوالد المماثل له في الجنس في الوقت نفسه، وبذلك تصبح الأم موضوعًا لحب الطفل ورغبته في أن تكون له وحده؛ بيد أن رغبته في امتلاكها لا تحقق بسبب وجود الأب الذي يحول بينه وبين تحقيق رغباته.

ولأن الأب عقبة -كما تذهب إلى ذلك وجهة النظر الفرويدية- فقد ينظر

إلى أبيه على أنه شخص منافس ومهدد في الوقت نفسه؛ ولأنه كذلك يغدو الأب موضوعًا لكراهية الطفل، فضلًا عن كون الأب يرتبط بعلاقة مع الأم من وجهة نظر الطفل، وهو الأمر الذي يستثير غضب الطفل وسخطه.

ولعل النتيجة المتوقعة من ذلك كله أن الأب سينتقم من الطفل، كما أن الأم ستجابهه بسحب حبها عنه. ومن أجل أن يحل الصراع الأوديبي هذا يقتضي الأمر تغيير موقفه من الأبوين؛ فمن جانب الأم ينبغي أن يكبت رغبته الجنسية إزاءها، وذلك بتحويلها من موضوع حب جنسي إلى موضوع حب مقبول اجتماعيًّا؛ لكي يتمتع بحبها ومودتها. ومن جانب الأب ينبغي أن يطمئن الطفل من أن الأب لن يهدده مستقبلًا بالخِصاء بسبب رغباته الجنسية في زوجته.

ولكي يأمن جانبه، يجد الطفل، أن التوحد مع شخص الأب والتشبه بخصائصه الشخصية كفيل بتحقيق الأمن النفسي الذي ينشده.

من ذلك يتضح أن توحد الطفل مع الأب لا يعزى في حقيقة الأمر إلى رغبته في التشبه بخصائص أبيه، وإنما يعزي إلى رغبة الطفل في التخلص من عقاب أبيه، وكأن الطفل بتوحده مع أبيه، قد حقق هدفين اثنين:

فأما الهدف الأول: فهو اكتساب صفة التهديد، ولعل ذلك يعني أن الطفل قد أصبح شخصًا مهددًا بدلًا من الأب.

وأما الهدف الثاني: الذي يحققه الطفل جراء توحده مع أبيه، فهو الحصول على اللذة وذلك بإشاعة الأمن والطمأنينة في العالم الذي يحيط به، وفي الوقت نفسه، تفريغه من الوحشة والغرابة[٦].

لا بد من الإشارة في هذا السياق إلى أن قوة توحد الطفل مع الأب، تعتمد

بالدرجة الأساسية على الجاذبية التي يتمتع بها الأخير، فكلما كان الأب دافئًا ومهتمًا بالطفل، كان ذلك ادعى إلى زيادة قوة التوحد [٧]، وعلى النقيض من ذلك يضعف توحد الطفل مع الأب، إن كان يتصف بالبرود وعدم الاكتراث.

٢- نظرية التعلم بالملاحظة

ترى هذه النظرية أن السلوك الاجتماعي يشكل عن طريق العديد من القوى الثقافية والاجتماعية.

وعندما نقول: إنه يُشكَّل عن طريق هذه القوى، إنما نعني بذلك أن هذه القوى تعمد إلى تعليم الفرد منذ نعومة أظفاره السلوك المرغوب فيه والسلوك غير المرغوب. وطبقًا لقاعدة المرغوبية السائدة في الثقافة، يتعلم الطفل الأنماط السلوكية المقبولة التي ترضي الكبار، وتلك التي تستثير عندهم الغضب والسخط والاستياء.

وعلى ذلك فإن السلوك الاجتماعي طبقًا لهذه النظرية هو نتاج البيئة الاجتماعية التي يعيش في كنفها الفرد، إذا كان السلوك الاجتماعي يتم تعلمه عن طريق القوى الثقافية والاجتماعية الحادثة في بيئة الفرد، فكيف يتم تعلم السلوك الجنسي؟ أو بمعنى آخر، كيف يتعلم الفرد دوره الجنسي في الحياة؟

ترى نظرية التعلم بالملاحظة أن الأطفال في الأعمار المبكرة، وعلى وجه التحديد في الأعمار الواقعة بين (٤-٥) سنوات يتعلمون الأنماط السلوكية الدالة على الجنس الذي ينتمون إليه وذلك يرجع أساسًا إلى تنامي قدرة الأطفال الإدراكية التي تساعدهم على التمييز بين التنبيهات الحادثة في البيئة الاجتماعية، ومنها على وجه التحديد، التمييز بين جماعة الذكور وجماعة الإناث، استنادًا إلى عدد من المؤشرات البارزة، ومنها على سبيل المثال لا الحصر، الخصائص التشريحية والمظهر الخارجي، إلى جانب إتقان اللغة التي تمكنهم من تشخيص

هذه الفروق والإشارة إليها، وذلك باستعمال المفردات الدالة على هذه الفروق.

وبذلك فإن الطفل الذي يكتسب الأنماط السلوكية الدالة على الجنس الذي ينتمي إليه، إنما يرجع إلى تنامي قدرته على التمييز بين التنبيهات الحادثة في البيئة الاجتماعية، ولولا هذا التنامي في القدرة الإدراكية، لما تمكن من تشخيص الفروق بين الجماعات الجنسية.

وهنا نصل إلى مسألة لا بد من الإشارة إليها وهي:

أن إدراك الفروق بين الجماعات الجنسية، يعتمد بطبيعة الحال على عدد من العوامل، وهنا نشير إلى أهمها:

أ- الثواب والعقاب

إن تثبيت الفروق الجنسية لدى الأطفال، يقتضي استعمال أساليب الثواب والعقاب[٩]، وهذا يعني أن الأبوين لكي يثبتان الفروق الجنسية، فإنهما يقدمان الثواب لأطفالهما في حال استصدار الأنماط السلوكية الدالة على الجنس الذي ينتمون إليه، ويستعملان العقاب في حال استصدار الأنماط السلوكية المخالفة لجنسهم مع الإشارة، إن الأبوين يلاحظان على الدوام سلوك أطفالهما، بقصد تشخيص حالات الخروج عن الدور الجنسي، وهنا يتدخل الأبوان في تعديل السلوك المخالف للدور الجنسي المتوقع، وذلك بتقديم النموذج المناسب لمحاكاته في سلوكه. أو نمذجة سلوكهم على غرار الأنماط السلوكية الصادرة عنه.

وإذن فإن أساليب الثواب والعقاب، تسهم في تثبيت السلوك الدال على الجنس.

ب- الوقت الذي يصرفه الطفل في ملاحظة النموذج

لا بد من الإشارة في هذا السياق إلى أن الوقت الذي يصرف في ملاحظة النموذج، يعد عاملاً مهمًّا في اكتساب الدور الجنسي وهذا يعود إلى أن الطفل الذي يصرف وقتًا كثيرًا في ملاحظة النموذج سيفضي به الحال إلى تقليد الكثير من الأنماط السلوكية الصادرة عنه، ومنها الأنماط السلوكية الدالة على الجنس الذي ينتمي إليه، وتثبيتًا لهذا الرأي، فلقد وجد أن الذكور الذين يصرفون وقتًا كثيرًا في ملاحظة آبائهم، كانوا أكثر ذكورة؛ والدليل على ذلك أنهم يقلدون آباءهم أكثر من أمهاتهم

من ذلك يتبين، أن مقدار الوقت الذي يصرفه الطفل في ملاحظة سلوك النموذج؛ ولاسيما السلوك الدال على فعاليات ذكرية، إنما يسهم -في حقيقة الأمر- في اكتساب أنماطًا سلوكية ذكرية، وفي الوقت نفسه، يساعد على إتقان الدور الجنسي المرتقب له في وقت لاحق.

ج- خصائص النموذج

معروف أن النماذج التي يتعرض لها الطفل في الحياة اليومية، لا تؤثر جميعها فيه أو بعبارة أخرى، ليس كل النماذج تجذب انتباهه، فالقليل منها هو الذي يؤثر فيه، ومن ثمَّ ينمذج سلوكه وفقًا لها، وهنا نثير سؤالين اثنين، هما: أي النماذج تؤثر في سلوك الطفل؟ وكيف تؤثر في سلوكه؟.

نقول بقصد الإجابة عن هذين السؤالين: إن النماذج التي تؤثر في سلوك الطفل، هي تلك النماذج التي تتصف بخصائص شخصية واجتماعية، تجعلها ادعى إلى التقاليد أو المحاكاة أكثر من غيرها من النماذج الأخرى التي تشيع في البيئة الاجتماعية، ولقد أعد لنا (باندورا) قائمة بخصائص النموذج الذي يجذب الانتباه أكثر من غيره، ولعل من أبرز هذه الخصائص:

١- أن يتمتع النموذج بمكانة اجتماعية مرموقة؛ ولعل ذلك يعني أن المكانة

المرموقة ستجعله أميل إلى تقليد سلوكه أو محاكاته من جانب الطفل.

٢- أن يتمتع النموذج بالكفاءة الشخصية، فكلما كان النموذج على درجة من الكفاءة كان أدعى إلى جذب الانتباه إليه من ثم تقليده.

٣- أن يتمتع النموذج بالجاذبية، فكلما كان النموذج على درجة من الجاذبية، كان أدعى إلى التقليد أو المحاكاة.

٤- أن يحسن النموذج الكلام أو إدارة الحوار وإن يتمتع بطلاقة لفظية، ذلك يجعله أدعى إلى التقليد[١١].

٥- أن يتمتع النموذج بالدفء والعطف، فكلما كان النموذج دافئًا وعطوفًا، كان أدعى إلى تقليده من جانب الطفل.

٦- إن النموذج الذي يتولى عملية الضبط وتوزيع المكافآت على الأفراد[١٢] أدعى إلى تقليده أو محاكاة سلوكه من غيره من النماذج الأخرى.

٧- ولعل ما يجذب الانتباه في نظرية التعلم بالملاحظة أن النماذج الذكرية أدعى إلى التقليد من النماذج الأنثوية، وهذا يعني حقيقة أن الذكور يركزون في ملاحظاتهم على النماذج الذكرية، أكثر من تركيزهم على النماذج الأنثوية، مما يفضي إلى تقليد السلوك الصادر عنها.

٨- عندما تزداد درجة التشابه بين النموذج والطفل، تزداد احتمالات التقليد[١٣]. فكلما ازدادت درجة التشابه والتماثل بين الاثنين مال الطفل إلى تقليد النموذج والعكس صحيح، كلما ضعفت درجة التشابه بين الاثنين عزف الطفل عن تقليد النموذج.

واضح أن النموذج الذي يتصف بهذا النوع من الخصائص، سيعمد بطبيعة الحال إلى جذب انتباه الطفل، ومن ثم تقليد سلوكه الذي يشتمل على فعاليات ذكرية.

٢- النظرية المعرفية -الارتقائية

لقد استندت هذه النظرية إلى المراحل التي طرحها (بياجيه) حول النمو المعرفي، وعندما نقول: إنها استندت إلى مراحل (بياجيه)، فهذا يعني أن التنميط الجنسي يكتسب طبقًا لمراحل النمو المعرفي التي حددها (بياجيه).

ولأجل الإحاطة بتفسير هذه النظرية لعملية التنميط الجنسي، يرى لورنس كولبرك -رائد هذه النظرية- أن معرفة الطفل بدوره الجنسي، يكون من خلال التسمية التي تطلق عليه من حيث كونه ولدًا أو بنتًا[١٤].

ولعل التسمية التي تطلق على الطفل هي التي تجعله يعرف الجنس الذي ينتمي إليه فإذا أطلقت عليه تسمية (ولد) فهذا يعني أنه ذكر وينبغي أن يتصرف بوصفه ذكرًا وإن أطلقت عليه تسمية بنت فذلك يعني أنها أنثى وينبغي أن تتصرف بوصفها أنثى وعلى ذلك فإن التسمية التي تطلق على الطفل ستجعله يعرف الجنس الذي ينتمي إليه ومن ثم التصرف استنادًا إلى القواعد السلوكية المحددة لكل جنس.

وبعد معرفة الطفل بجنسه، تبدأ مرحلة أخرى من الارتقاء المعرفي، ألا وهي توحد الطفل مع الوالد المماثل له في الجنس، إذ يبدأ الذكر بالتوحد مع أبيه؛ لأنه يريد أن يكون ذكرًا[١٥]، ولعل ذلك خلاف التوجهات الفرودية التي ترى أن الذكر يتوحد مع أبيه، وكذا الحال مع الأنثى إذ تتوحد مع أمها، ثم تكتفي بهذا القدر من التفسير، بيد أن الأمر جد مختلف مع وجهة النظر المعرفية والارتقائية، إذ ترى وجهة النظر هذه على لسان رائدها كولبرك، أن عملية التنميط الجنسي هي عملية معرفية، نافيًا أن تكون نتيجة للتوحد.

وإذن فإن الخلاف بين وجهتي النظر الفرودية والمعرفية الارتقائية، يكمن في الترتيب السببيه فالفرويدية كما أشرنا تسلم بفكرة أن التنميط الجنسي هو نتاج

للتوحد، بمعنى أن الذكر يتوحد مع الأب، والأنثى تتوحد مع الأم على أساس التماثل في الجنس فحسب دون أن تذكر سببًا آخرًا للتوحد غير ذلك، في حين أن النظرية المعرفية الارتقائية تسلم بفكرة وجود أثر واضح للتوحد في عملية التنميط الجنسي، ولكن هذه الفكرة تجعل من التوحد عملية نفسية تحدث نتيجة للتنميط الجنسي، وليس العكس.

ومما له دلالة في هذا الصدد، أن إنجاز الأطفال لبعض المراحل المعرفية، سيفضي الحال بهم إلى إدراك دورهم الجنسي حتى في حال غياب ضغوط القوى الثقافية والاجتماعية التي تعمد إلى حملهم على مجاراة الدور الجنسي [١٦].

فعلى سبيل المثال: إن الذكر قبل أن يدخل المدرسة الابتدائية، يحدد جنس الفرد استنادًا إلى الشعر؛ فالشعر القصير للرجل والشعر الطويل للمرأة، وقد يفكر في هذه المرحلة بتغيير جنسه، وذلك بجعل شعره طويلًا أو قصيرًا، بيد أن انتقاله إلى المرحلة الإجرائية؛ طبقًا لمراحل بياجيه، سيعرف هذا الطفل أن الذكر يظل ذكرًا سواء كان شعره قصيرًا أم طويلًا، والأنثى تظل أنثى سواء كان شعرها قصيرًا أم طويلًا.

وبذلك فإن ارتقاء الطفل إلى مرحلة معرفية متقدمة، ستمكنه من الاعتماد على عدد من المؤشرات التي يتم عن طريقها تحديد الجنس، فإذا كان الطفل في بدايات المرحلة الأولى يعتمد على مؤشر واحد هو الشعر في تحديد الجنس، فإن المرحلة اللاحقة ستجعله يعتمد على مؤشرات الأعضاء التناسلية والشعر، وبارتقائه إلى مرحلة معرفية أخرى أكثر تطورًا من سابقتها؛ ستزداد لديه المؤشرات التي يعتمد عليها في تحديد الجنس.

من ذلك يتضح أن النظرية المعرفية الارتقائية تنظر إلى عملية التنميط الجنسي، على أنه عملية معرفية تتطور لدى الطفل، تبعًا للمراحل المعرفية التي يمر بها.

٤ - نظرية المخطط الجنسي

من المفيد الإشارة هنا أن المخطط SCHEMA بلغة بياجيه يعني بناءً معرفيًّا، إذ يساعد الفرد على تفسير الأحداث والأشياء الموجودة في بيئته المحيطة به؛ وطبقًا لمفهوم بياجيه عن المخطط فإن الشيء الذي يراه الفرد أو يسمعه، إنما يفسره على أساس المخطط الذي يحمله، وهذا معناه أن ما يجده الفرد من أشياء وأحداث ينبغي أن يستمد تسمياتها أو تفسيراتها من المعلومات التي يشتمل عليها المخطط، فعلى سبيل المثال لا الحصر، عندما يرى البدائي طائرة تحلق في أجواء قبيلته، قد لا يطيل التفكير في أمرها وذلك بسبب وجود الطيور في مخططاته؛ وعلى ذلك يقول: (طائر كبير).

وإذن فإن المخطط يساعد الفرد على إيجاد التفسيرات المناسبة للأحداث والأشياء التي توجد في البيئة المحيطة به.

وهنا نصل إلى مسألة لا بد من الإشارة إليها وهي، أن نظرية المخطط الجنسي لم تخرج عن سياق طروحات بياجيه في النمو المعرفي، إلى جانب اعتمادها على مبادئ التعلم الاجتماعي، ومن هذين الاتجاهين خرجت بحصيلة معرفية عن التنميط الجنسي، أطلق عليها نظرية (المخطط الجنسي).

إذ ترى ساندرا بم -رائدة هذه النظرية- أن المخطط الجنسي، يكتسب منذ الطفولة المبكرة، وهنا تعمد القوى الاجتماعية إلى تزويد الطفل بمعلومات تساعده على تصنيف الأفراد إلى الجنس الذي ينتمون إليه، ثم بعد ذلك يأخذ هذا المخطط بالتعديل والتحوير، عندما يتقدم الطفل في العمر ولعل الهدف من هذا كلِّه، هو إحداث حالة من الانسجام مع ما يستجد من المعلومات حول الأشياء والأحداث الموجودة في بيئة الطفل(١٨).

والدليل على ذلك أن الطفل في السنوات الأولى من نموه، لا يجد فرقًا يذكر

بين الذكر والأنثى في الشعر، بيد أن تقدمه في العمر، سيضيف إلى مخططه معلومات جديدة تفيد أن الشعر القصير للذكر والشعر الطويل للأنثى، وهنا أحدث الطفل بتقدمه في العمر تعديلًا في مخططه بما يتناسب والمعلومات المستجدة التي استلهمها من البيئة المحيطة به، ثم يدرك فيما بعد -نتيجة التعديلات التي تحدث في مخططاته- أن الذكر لا يقتضي بالضرورة أن يرتدي البنطال وأن يكون شعره قصيرًا، وإنما يقتضي الحال أن يكون له تركيبٌ فسيولوجيٌّ دالٌّ على الذكورة.

وكذا الحال مع الأنثى إذ يدرك بعد تعديل مخططاته أن الأنثى لكي تكون أنثى لا يقتضي الأمر أن ترتدي التنورة، وإن يكون لها شعرٌ طويلًا، وإنما تقتضي الضرورة أن يكون لها تركيبٌ فسيولوجيٌّ دالٌّ على الأنوثة.

واضح أن التنميط الجنسي من وجهة نظر (بم) يفسر استنادًا إلى المخططات التي يكونها الفرد منذ طفولته المبكرة، ثم يحدث فيها تعديلًا وتحويرًا بما يتناسب والمعلومات المستجدة في بيئته المحيطة به.

وبعد هذا الاستعراض لأهم النظريات المفسرة لعملية التنميط الجنسي نثير هنا سؤالًا من قبيل:

- ما النظرية المناسبة لتفسير عملية التنميط الجنسي؟

نعتقد أن النظرية المرجحة لتفسير عملية التنميط الجنسي، هي نظرية التعلم بالملاحظة، ولعل ترجيح هذه النظرية على غيرها من النظريات الأخرى، يستند إلى مقولة: إن أغلب السلوك البشري ومنه السلوك الدال على الجنس، يتم تعلمه عن طريق الملاحظة أو التقليد ولعل الوقائع الميدانية تثبت صحة هذه المقولة.

اكتساب التنميط الجنسي

تشير الأدبيات النفسية، أن الطفل يتسم بالحياد الجنسي منذ لحظة ولادته. بالرغم من انتمائه البيولوجي إلى جنس معين[١٩]. وإذا نحن أمعنا النظر في هذه العبارة، نجد أن الخصائص النفسية المرتبطة بجنس الطفل لا تظهر في سلوكه لحظة ولادته، وإنما تظهر بعد فترة زمنية يكون فيها الطفل قد تمكن من إتقان عمليات التعلم الاجتماعي، تلك العمليات التي تعمد إلى تقنين سلوكه فيما يتصل بالجنس الذي ينتمي إليه، وكذلك، إتقان اللغة التي تساعده هي الأخرى في التعبير عن مشاعره الجنسية، وعلى ذلك فإن عمليات التعلم الاجتماعي الحادثة في بيئة الطفل هي التي تبصره باهتمامات جنسه وتفضيلاته وهي التي تقرر له كذلك معايير السلوك المحددة للجنس الذي ينتمي إليه.

ومما له دلالة في هذا الصدد، أن عمر الطفل يعد متغيرًا مؤثرًا في إتقان عمليات التعلم الاجتماعي، ومنها عملية إتقان الدور الجنسي، إذ كلما تقدم الطفل في العمر، ازدادت خبرته الاجتماعية، ومن ثم تمكن من معرفة الجنس الذي ينتمي إليه وتثبيتًا لهذا الرأي، تشير الدراسات في هذا الصدد، أن الأطفال الذين ينجزون السنة الثانية، يتمكنون من تصنيف جنسهم بشكل صحيح بيد أن فهمهم للهوية الجنسية لما يزول بعد، محدودًا للغاية[٢٠] بمعنى أنهم لا يعرفون ما تعنيه كلمة (رجل) أو كلمة (امرأة) ولعل ذلك يرجع إلى إن خبراتهم الاجتماعية والمعرفية لا تمكنهم من فهم عملية التصنيف الجنسي، وكل ما يستطيعون فهمه في هذه المرحلة العمرية المظاهر الخارجية التي يتميز بها كل من الجنسين. فالرجال على سبيل المثال يرتدون البنطال ورابطة العنق، في حين تلبس النساء التنورات[٢١] وفي عمر (٣) سنوات، تزداد خبرات الأطفال الاجتماعية والمعرفية تلك الخبرات تسهم في فهمهم للمفاهيم الملموسة المتصلة بالدور الجنسي أكثر من فهمهم للمفاهيم المجردة[٢٢] ومنها على سبيل المثال السمات المرتبطة بالجنس، إذ يجد الأطفال صعوبة في فهم هذه السمات ومن ثم

يواجهون صعوبة في عملية تصنيفها على أساس الجنس، أما الأطفال في عمر (٥) سنوات، نجد أن نسبة قليلة منهم، تتمكن من فهم السمات المرتبطة بالجنس.

وإذا انتقلنا إلى الأطفال في أعمار متقدمة، نجد أن ثمة زيادة في عملية الفهم، ففي عمر (٨) سنوات يتمكن (٧٥٪) من الأطفال من إنجاز مهمة فهم السمات المرتبطة بالجنس ، وعندما ننتقل إلى عمر (١١) سنة، نجد أن نسبة إنجاز هذه المهمة قد تصل إلى (١٠٠٪)[٢٣].

وتأسيسًا على ما سبق نقول: إن التنميط الجنسي، هو عملية ارتقائية، وهذا معناه أن تقدم الطفل في العمر يفضي إلى إنجاز بعض أجزاء هذه العملية، شريطة أن تكون ثمة خبرات اجتماعية ومعرفية يزود بها الطفل أثناء الارتقاء العمري، وذلك لضمان إنجاز مهمات التنميط الجنسي.

عود على بدء، نقول: إن إتقان الدور الجنسي المرتقب، يعتمد على إتقان عمليات التعلم الاجتماعي، تلك العمليات التي تعمد إلى تقنين السلوك الجنسي، وفي هذا السياق نشير إلى إسهام هذه العمليات في اكتساب التنميط الجنسي.

أولا: الأسرة

بادئ ذي بدء، نقول: إن الطفل ما أن يتقن لغته، حتى يبدأ الأبوان باتباع أسلوب التمايز الجنسي مع الأطفال[٢٤]، ونقصد هنا التمايز الجنسي، إن الأبوين يتبعان عددًا من الطرق التي يتم من خلالها جذب انتباه الأطفال إلى الأشياء التي تخص كلًّا من الذكور والإناث، ولعل من أبرز هذه الطرق المتبعة، توزيع الألعاب، فالطفل الذكر يشجع على اللعب المسدس والسيارة والقطار والدراجة، في حين تشجع الأنثى على اللعب بلعبة منزل العرائس ولعبة

العروس. كذلك يتبع الأبوان طريقة التركيز على التباين في الملبس من حيث التصميم وشكل الملبس وطريقة الارتداء ونوع الأقمشة المرتبطة بالجنس. كما يركز الأبوان على الشعر، في محاولة لجذب الانتباه إلى الفروق الجنسية، فالشعر لدى الذكر عادة ما يكون قصيرًا بينما يكون لدى الأنثى طويلًا ينسدل على الأكتاف، ومن الطرق التي يتبعها الأبوان في إحداث التمايز الجنسي، التركيز على ضرورة عقد الصداقات مع أقران الجنس نفسه، ولا يجوز عقد مثل هذه الصداقات مع آخرين مخالفين للجنس.

ومن الطرق المتبعة في هذا الصدد، إسناد مهمات معينة لكل من الذكور والإناث بما يتناسب والصور النمطية الشائعة عن كل منهما في الثقافة السائدة، فقد يكلف الذكور بمهمات خارج المنزل أو تلبية بعض الاحتياجات الخارجية، في حين تكلف الإناث بأعمال التنظيف والطبخ ورعاية الصغار؛ اعتقادًا من الأبوين، أن هذه الأعمال إنما تسهم في تهيئة الأطفال لأداور مرتقبة.

ولعل من الطرق التي يتبعها الأبوان في إحداث التمايز الجنسي بين الأطفال التركيز على المنافسة والاستقلالية وتحمل المسئولية والتحكم بالانفعالات[٢٥].

فلقد وجد أن الأبوين يشجعان الذكور على ممارسة النشاطات التنافسية ومحاولة تحقيق درجات متقدمة فيها، وكما يشجع الأبوان الاستقلالية والاعتماد على النفس في تدبير شئونهم الشخصية، وتحمل المسئولية وتقليل الاعتماد على الغير، إلى جانب إن الأبوين يعمدان إلى تدريب الذكور على كظم الغيظ، وذلك بعد السماح لهم في التعبير عن انفعالاتهم بصورة صريحة إذ إن أول تدريب للطفل الذكر على التحكم بانفعالاته تذكيره بالمقولة الشائعة (إن الرجل لا يبكي أمام الناس) وإن اقتضت الضرورة البكاء، فيفضل أن يكون في خلوة، بعيدًا عن الأنظار، وعلى النقيض من ذلك، يمارس الأبوان طريقة كف الإناث عن استصدار استجابات معينة في مواقف من قبيل المنافسة:

إذ تمنع الإناث من مزاولة النشاطات التنافسية؛ لأنها في واقع الأمر ذكورية ولا يجوز للإناث مزاولتها، واللواتي يزاولن بعض هذه النشاطات وحتى على نطاق محدود، يتهمن بالذكورة، مما يعرضهن للسخرية والنقد والتندر؛ لذا فإن الأبوين لا يسمحان للإناث بممارسة مثل هذه النشاطات، كذلك يسعى الأبوان إلى تنمية الاتكالية لدى الإناث وذلك بزيادة الاعتماد عليهما، انطلاقًا من القول القائل: إن الأنثى كائن ضعيف، وينبغي أن تعتمد على الرجل في تلبية احتياجاتها فضلًا عن توفير الحماية لها، ولا غرابة بعد ذلك، من استصدار استجابات دالة على الاتكالية وفيما يتعلق بالتحكم بالانفعالات، فإن الأبوين يشجعان الإناث على التعبير عن انفعالاتهن بصورة صريحة، في حال التعرض إلى مواقف تنطوي على الألم من قبيل فقدان شخص عزيز، إذ يسمح لهن بالبكاء والنحيب، بيد أنه لا يسمح لهن بالرد بالمثل في التعرض إلى الإهانة طبقًا للمعتقدات الشائعة، التي تركز على أن (المرأة المحتشمة لا ترد بالمثل).

وهناك طريقة يتبعها الأبوان يبدو فيها التمايز بين الجنسين واضحًا، هذه الطريقة تتمثل بالعدوان، فلقد وجد في معظم الثقافات ومنها الثقافة العربية، وأنها تسمح للذكور بالرد على العدوان في حال التعرض إلى عدوان مماثل من الآخر، ولا يشجع هنا على كظم الغيظ أو اتباع أساليب تنطوي على المهادنة أو الاستسلام؛ لكي لا يسمح للآخر بتكرار عدوانه في موقف آخر بينما الأمر جد مختلف مع الإناث إذ لا يشجعن بالرد على العدوان الموجه إليهن، ولعل ذلك يعود إلى الصورة النمطية السائدة عن المرأة تلك الصورة التي تنعتها بالضعف والاستكانة والسكوت إزاء العدوان الموجه إليها من الآخر وفي حال الرد على العدوان، فقد تتهم بالشراسة، فضلًا عن نعتها بصفات سلبية.

ومن الطرق التي يعمد إلى اتباعها الأبوان في التمايز بين الجنسين، التدريب على انتقاء الألفاظ الدالة على الذكورة أو الأنوثة، أو بعبارة أخرى يدرب كلٌّ

من الجنسين على استعمال الألفاظ المتصلة بهما، فعلى سبيل المثال في المجتمع العراقي، يدرب الذكور على استعمال لفظة (آه) للتعبير عن الدهشة، في حين تدرب الإناث على استعمال لفظة أخرى وهي (يا) للتعبير عن الأمر نفسه.

كذلك يفضل استعمال ألفاظ محددة جنسيًّا، في حال التفاعل بين الجنسين وعند الخروج عن هذه القاعدة يتعرض كلٌّ منهم إلى النقد والاستهزاء.

والحقيقة أن هذه الطرق المتبعة من جانب الأبوين، يراد منها التنبيه إلى الفروق الحاصلة بين الجنسين بهدف إيصال كلٍّ منهما إلى رأي مفاده؛ أن هذه مقتنيات ذكرية وتلك مقتنيات أنثوية، أو أن هذا النمط من السلوك دال على الذكورة وذاك النمط من السلوك دال على الأنوثة.

ثانيًا: جماعة الأقران

إن لجماعة الأقران إسهام فاعل في عملية التنميط الجنسي للأطفال، سواء كانوا ذكورًا أم إناثًا، فلقد لوحظ من الوقائع الميدانية، أن جماعة الأقران تعزز توجهات الآباء في تنمية ذكورة أطفالهم وتشير الوقائع الميدانية، أن الأطفال قد يكتسبون من أقرانهم بعض الأنماط السلوكية التي تنسجم مع دورهم الجنسي، فضلًا عن مساعدتهم في تنمية ميولهم نحو الجنس الآخر(٢٦).

وفي أحيان أخرى، تعمد جماعة الأقران إلى منع الأطفال من استصدار استجابات مخالفة لدورهم الجنسي، وعلى سبيل المثال، في حال ظهور استجابات أنثوية في سلوك أحدهم؛ فإن جماعة الأقران قد تنتقده أو تسخر منه ولعل ذلك يعرضه إلى الحرج مما يفضي إلى الإحجام عن استصدار مثل هذه الاستجابات؛ تجنبًا للسخرية أو النقد، وعلى ذلك فإن جماعة الأقران تسهم -مع قنوات التنشئة الأخرى- في تعزيز النمط السلوكي الدال على الجنس الذي ينتمي إليه الفرد.

ثالثا: المؤسسة التربوية

تعد المؤسسة التربوية من العوامل المهمة التي تسهم في عملية التنميط الجنسي، وعادة ما تعتمد على عدد من المصادر في هذا الصدد منها: المعلمون والمقررات الدراسية، والنشاطات الحادثة، وداخل المدرسة.

وفيما يتعلق بالمعلمين نقول: إن المعلمين من الممكن أن يسهموا في عملية التنميط الجنسي، بأساليب متعددة منها على سبيل المثال: استعمال أسلوب الثواب مع التلاميذ الذين يظهرون أنماطًا سلوكية دالة على الذكورة أو استعمال أسلوب العقاب كالتوبيخ مثلًا، أو الحرمان من نشاط معين في حال مخالفة الدور الجنسي أو الاعتماد على طريقة المقارنة بين التلاميذ الذين يجارون الدور الجنسي الذكري، وأولئك الذين يظهرون نمطًا سلوكيًا أميل إلى الأنوثة.

وهنا يلجأ المعلمون إلى طرح الأمثلة المستمدة من البيئة الاجتماعية التي تبين محاسن الالتزام بالسلوك الجنسي النمطي ومساوئ المخالفة لهذا النوع من السلوك.

إن استعمال المعلمين أساليب الثواب والعقاب، إنما يستهدفون من ذلك، تشجيع التلاميذ على استصدار استجابات دالة على الذكورة، وإطفاء تلك الاستجابات الدالة على الأنوثة.

وبالنسبة للمقررات الدراسية فإنها لا تعدو أن تكون وسيلة اتصال بين النظام التربوي والمتعلمين، إذ يتم من خلالها إيصال الرسائل التي يحث عليها الخطاب التربوي.

وما يهمنا هنا أن المقررات الدراسية، طالما أنها وسيلة اتصال بين الخطاب التربوي والمتعلمين فإنها -والحال هذه- لا بد أن تسهم في عملية التنميط الجنسي التي يراد منها أن يلتزم الأفراد من كلا الجنسين بالأدوار المحددة جنسيًا

لكل منهما، وذلك بتذكيرهما بهذه الأدوار، مع بيان الصفات الدالة على كل دور، وتثبيتًا لهذا الرأي أجرت إحدى الدراسات تحليلًا للصور المعروضة في الكتب المدرسية للصف الأول والثاني والثالث والرابع والابتدائي في كلٍّ من سوريا والأردن، وقد توصلت هذه الدراسة بين ما توصلت إليه، أن الذكور يشتركون في نشاطات بدنية من قبيل: تسلق الأشجار والصيد وكرة القدم وألعاب الكرة بأنواعها المختلفة، بينما أظهرت الإناث أنها تتميز بنشاطات مثل: الرقص والوثب بالحبل وقطف الأزهار وقراءة الشعر(٢٧) ولعل ذلك يشير أن الطفل الذي يرى المزيد من هذه الصور أو سماع الصفات الدالة على الذكورة. التي تتكرر باستمرار وبشكل متسق لا بد أن يكون علاقة شرطية، وستكون نتيجة هذه العلاقة، أن الذكر هو القوي، وهو البطل وهو القادر على إنجاز المهمات الصعبة، بينما ستكون نتيجة هذه العلاقة بالنسبة للأنثى، الاقتصار على إنجاز المهمات التي تتناسب مع تكوينها البيولوجي أولًا والدور المحدد لها ثقافيًا ثانيًا وفيما يتصل بالنشاطات المدرسية، فإن الإدارة المدرسية، لا بد أن تراعي في هذا الصدد، مسألة التمايز الحادث بين الجنسين، فهناك نشاطات يزاولها الذكور ويحظر على الإناث مزاولتها بالمقابل، هناك نشاطات أخرى، تقتصر على الإناث ويمنع الذكور من مزاولتها، وكأن بالإدارة المدرسية، أرادت من هذا الإجراء إحداث علاقة شرطية بين نشاطاتها وجنس التلاميذ الذين يزاولونها.

رابعًا: التلفزيون

تشير الملاحظات الميدانية أن الصورة التلفزيونية، تُسْهِم في تعريف الطفل بدوره الجنسي المتوقع له، وإن ثمة عددًا من الطرق التي يتبعها مرسل الصورة في تعريف الطفل بدوره الجنسي، ومن بينها:

عرض صورة تتناول الفروق البيولوجية الحادثة بين الجنسين، وذلك من خلال تركيزها على الخصائص البارزة التي يتمتع بها كل جنس بقصد تعريف

الأفراد بالاختلافات الجنسية البارزة؛ وعلى ذلك فإن الصورة ستركز على الحمل والثدي بوصفها خصائص بارزة للأنثى؛ إذ يمكن تصويرها ومن ثم إرسالها إلى كلا الطرفين لمعرفة حقيقة الفروق، وكذا الحال مع الذكر، فإن الصورة ستركز على خصائصه البيولوجية البارزة، تلك الخصائص المتمثلة بقوته الجسدية، وبذلك فإن الصورة التلفزيونية ستعمد إلى إشعار الجنسين إلى أدوارهما المرتقبة في الحياة الاجتماعية.

كذلك تركز الصورة التلفزيونية على التسمية لكل من الجنسين، وذلك باستعمال الطريقة الإشراطية، تلك الطريقة التي تعتمد حصرًا على ربط صورة الذكر بأسماء معينة، وكذلك ربط صورة الأنثى بأسماء معينة أيضًا، وكأن الصورة هنا أريد منها إيصال رسالة مفادها، أن اتخاذ التسمية الدالة على الجنس الذي ينتمي إليه الفرد، تجعله يحظى بالقبول الاجتماعي، إلى جانب تجنب الحرج عند اتخاذه التسمية المخالفة لجنسه.

ويبرز إسهام التلفزيون أيضًا في عملية التنميط الجنسي، من خلال التركيز على أدوات التجميل، وطريقة التزين المتصلة بالجنس، فالصورة التلفزيونية تظهر طريقة التجميل لدى الأنثى من خلال استعمالها مساحيق التجميل التي تدهن بها الوجه أو تضعها على الشفاه والعيون والحواجب، في حين تُظْهر الصورة طريقة الزينة المتبعة لدى الذكر من خلال التركيز على حلق الذقن وتصفيف الشعر القصير في محاولة لتثبيت الدور الجنسي المتوقع لكل منهما عند الانخراط في عمليات التفاعل الاجتماعي.

الأب وأثره في عملية التنميط الجنسي للأطفال الذكور

يعد وجود الأب في الأسرة عاملاً مهمًا في اكتساب الطفل خصائص الشخصية المطابقة لجنسه، ولاسيما الذكر على وجه التحديد، وذلك يرجع أساسًا، إلى أن اكتساب هذه الخصائص ستمكنه من التوافق مع المحيط

الاجتماعي وفي هذا السياق نثير سؤالين هما: متى يدرك الطفل وجود الأب؟ وكيف يسهم الأب في عملية التنميط الجنسي للطفل الذكر؟

إن الإجابة عن هذين السؤالين، يمكن تلخيصها على النحو الآتي:-

إن الطفل يبدأ بإدراك الأب في السنة الثانية[٢٨] تحديدًا؛ والسبب يعود إلى إن الطفل في هذه السنة يكون قد أتقن العمليات الإدراكية، تلك العمليات التي تمكنه من الانتباه إلى الأب، ومعرفة ملامح وجهه، ومن ثم تمييزه عن الآخرين ثم بعد ذلك يبدأ الطفل بإدراك طبيعة العلاقة مع الأب، فإن كانت هذه العلاقة تستند إلى المودة والعطف والاهتمام؛ ستفضي إلى التصاق الطفل بأبيه وإلى الاهتمام به والسؤال عنه في حال غيابه وبالمحصلة النهائية، إن مثل هذه العلاقة ستشجع الطفل على تقليد الاستجابات الصادرة من الأب، بيد أن علاقة الطفل بالأب، ستأخذ بالضعف في حال افتقار هذه العلاقة إلى المودة والحب، ولعل ذلك يجعل الطفل غير مكترث بأبيه مما يترتب على عدم اكتراث الطفل بالاستجابات الصادرة منه، وقد يضعف الاكتراث هذا عملية التنميط الجنسي، تلك العملية التي تقتضي نمذجة الطفل للسلوك الصادر من الأب، ولا سيما السلوك الدال على الذكورة.

هذا فيما يخص الإجابة عن السؤال الأول، أما بصدد الإجابة عن السؤال الثاني، نقول:إن وجود الأب سيساعد الطفل الذكر على استدخال الأدوار الذكرية المطلوبة، أما غيابه عن عالمه الاجتماعي في وقت مبكر من حياته، فقد يختلط الأمر عليه ولا يعرف الدور الجنسي المطلوب تأديته، لذا فإن اكتساب الخصائص الدالة على الجنس أصبح ضرورة تقتضيها الحياة النفسية السوية.

والحقيقة إن الأب في بعض الأحيان لا ينبه الطفل إلى الصفات المرغوبة وغير المرغوبة، وإنما يحصل أن الطفل يلاحظ أبيه وينتبه إليه، عندما تصدر منه

تصرفات معينة، تلك التصرفات هي التي تسترعي انتباهه وتجعله يستدخل النمط السلوكي المقبول، هذه العملية يطلق عليها التوحد وهي في الواقع عملية لا شعورية يكتسب الطفل من خلالها خصائص الشخص المماثل له في الجنس كما وردت الإشارة إلى ذلك في نظرية التوحد، ولكي تتم عملية التوحد يشترط أن يكون الأب على الدوام أمام ناظري الطفل، وينصح المربون والباحثون في ميدان علم النفس التكويني بضرورة وجود الأب في السنوات الخمس الأولى؛ وذلك لأن هذه الفترة كما هو معروف تبدأ فيها شخصية الطفل في التشكل، ولما كان هذا الوقت هو الوقت الذي تتشكل فيه الشخصية، ينبغي أن يكون الأب حاضرًا وطبقًا لقولنا هذا: إن غياب الأب عن الطفل لفترة طويلة، ولاسيما في السنوات الأولى قد يضعف التوحد، ولا يبقى له أثرًا يذكر، مما يعني اضطراب في الخصائص الدالة على ذكورته، وقد يترتب على ذلك جملة من المشكلات النفسية، وهنا نشير إلى أهم تلك المشكلات.

١ - صعوبة تكوين مفهوم واضح عن الذات الذكرية

تشير الدراسات في هذا الصدد، أن الدرجات التي حصل عليها الأطفال الذي غاب عنهم آباؤهم في السنوات الأولى على مقياس الذكورة كانت أقل من أقرانهم الذي يعيشون مع آبائهم[٢٩].

والواقع إن غياب الأب عن حياة الطفل، لم يقتصر أثره على معرفة مقتضيات دوره الجنسي فحسب، وإنما أثر الغياب على صعوبة تكوين مدركات عن الذكورة نفسها، وتثبيتًا لهذا الرأي، طلبت إحدى الدراسات التي أجريت في منطقة البحر الكاريبي من الأطفال الذي تراوحت أعمارهم بين (٨- ١٥) سنة، أن يرسموا صورًا بشرية، وذلك لاختبار الفرضية القائلة: إن الأطفال الذين غاب عنهم آباؤهم رسموا صورًا للذكور، هي في حقيقة الأمر أقصر من تلك الصور التي رسمتها الإناث[٣٠]. وهذا يدل على حقيقة أن الأطفال الذكور

لم يدركوا بعد الخصائص الذكرية وما يجب أن يتصف به الذكر، والسبب واضح أن قلة الخبرة في الخصائص الذكرية وغياب النموذج المثال الذي يجب أن يقتدي به الطفل أو على نحو أصح، غياب النموذج الذي يعمد الطفل إلى نمذجة سلوكه الدال على الذكورة، كان السبب في عدم استدخال الخصائص الذكرية؛ لذا فإن الخصائص الذكرية غدت لديهم مشوبة بنوع من النقص على الأقل في مظاهرها السلوكية.

٢- الميل إلى النمط الأنثوي

يلاحظ على الطفل الذكر الذي تتولى الأم تنشئته بوصفها بدلًا عن الأب الغائب، انشغاله باهتمامات أنثوية، تلك الاهتمامات التي تكون من قبيل الشعور بالألفة عند مجالسة النساء والاهتمام بتفصيلاتهن وكذلك الاهتمام بالأحاديث الدائرة بينهن، حتى لقد وجد أن الأطفال الذين لديهم مثل هذه الاهتمامات بدرجة كبيرة كانوا يفضلون ارتداء ملابس الإناث واقتناء مستلزماتهن، وعند التقدم في العمر وجدت لديهم الرغبة في أن يكونوا إناثًا[٣١] بدليل أن الدراسات التي أجريت في هذا الصدد، كشفت بين ما كشفت، أن الذكور الذي حرموا من الأب في عمر (٤) سنوات أو أقل كانت درجاتهم على اختبار الذكورة، أقرب إلى النمط الأنثوي منه إلى النمط الذكري[٣٢] وقد ترتب على بروز النمط الأنثوي في سلوك هؤلاء الأطفال انخفاض واضح في مستوى عدوانيتهم مقارنة بأقرانهم كما ترتب على بروز النمط الأنثوي هذا ضعف الإقبال على ألعاب المنافسة تلك الألعاب التي تستدعي الاشتباك البدني[٣٣] مع الآخر.

من ذلك يتضح أن الأم التي تكون بديلًا عن الأب في تنشئة الطفل الذكر ستنمي لديه، ولو بطريقة غير مقصودة نمطًا أنثويًا، وهذا سيجعله بطبيعة الحال يعاني من سوء التوافق وذلك لعدم قدرته على أن يكون واحدًا من أبناء جنسه، ولذا فإن وجود الأب -وهنا نركز على الأب الفاعل والمؤثر- سيفضي إلى

جذب انتباه الطفل إلى الميول الذكرية وحثّه على نمذجتها بمرور الوقت.

٣- الميل إلى الجنسية المثلية

تشير البينات الميدانية المستمدة من الدراسات، أن الذكور الذين حرموا من الأب في وقت مبكر كانوا يتمتعون بميول جنسية مثلية[٣٤]، وعند التحري عن الأسباب التي جعلت هؤلاء يميلون إلى أفراد من جنس مماثل، بدلًا من الميل إلى أفراد الجنس الآخر، تبين أن غياب الأب دفع هؤلاء الأطفال إلى ملازمة أمهاتهم والالتصاق بهن[٣٥] فضلًا عن الشعور بالأمن معهن، ولقد كانت النتيجة المترتبة على ذلك أن هؤلاء الأطفال قد اتخذوا أمهاتهم نماذج مثالية يشكلون على غرارها استجاباتهم إزاء العالم المحيط بهم.

وتثبيتًا للرأي الذي ذهبنا إليه من أن توحد الذكور مع أمهاتهم قد يفضي إلى بروز الجنسية المثلية في سلوكهم توصلت إحدى الدراسات التي كان أحد أهدافها الكشف عن الفروق في التوحد بين الذكور الذين لديهم جنسية غيرية وأقرانهم الذين لديهم جنسية مثلية أن الذكور من ذوي الجنسية المثلية كشفوا عن توحد قوي مع أمهاتهم وتوحد ضعيف مع آبائهم[٣٦] مقارنة بأقرانهم الذين كشفوا عن توحد قوي مع آبائهم وضعف واضح في التوحد مع أمهاتهم، وتلك إشارة واضحة على ضعف شعور هؤلاء الأطفال بذكورتهم وبذلك فإن غياب الأب عن الأطفال في وقت مبكر سيفضي الحال بهم إلى إضعاف ذكورتهم وهذا سيؤدي بدوره في وقت لاحق إلى الميل إلى أولئك الأفراد الذين يتماثلون في معهم في الجنس.

٤- تنمية الاتكالية

تشير الدراسات في هذا الصدد إلى أن الأطفال الذين حرموا من الأب مبكرًا كانوا أميل إلى الاتكالية[٣٧] من أقرانهم الذين يعيشون مع آبائهم وهذا يعود بطبيعة الحال إلى عدد من الأسباب، ولعل من أبرزها أساليب الرعاية

الزائدة التي حظي بها هؤلاء قد أدت إلى تنمية الاتكالية وقد أصبحت بمرور الوقت واحدة من خصائصهم الشخصية التي يتصفون بها.

كذلك فإن بديل الأب المشرف على رعاية هؤلاء لم يعمد إلى تزويدهم بالخبرات اللازمة لمواجهة مقتضيات الحياة، فضلًا عن غياب التدريب على قواعد التعامل مع المواقف الحياتية المختلفة والحقيقة أن هذه الأسباب هي التي جعلت هؤلاء الأطفال أكثر اتكالية على الغير في تدبير شئونهم الحياتية.

العوامل التي تفضي إلى تقليل الآثار النفسية المترتبة على غياب الأب

لقد تناولنا في الفقرات التي مرَّ ذكرها وجود الأب وأثره في التنميط الجنسي للأطفال الذكور وركزنا في هذا الفقرات على القول القائل: إن غياب الأب في وقت مبكر من نمو الطفل؛ سيفضي إلى إضعاف ذكورته، وقد يترتب على ذلك جملة من الآثار النفسية، وبهدف تقليل الآثار النفسية هذه فقد طرحت الدراسات في هذا الصدد عددًا من العوامل التي يتم من خلالها تقليل الآثار النفسية المترتبة على غياب الأب وفي هذا السياق نجد من الضروري أن نستعرض أهم هذه العوامل:

١- تشير الدراسات التي أجريت في هذا الصدد أن وجود بديل عن الأب سيفضي إلى اكتساب الدور المنمَّط جنسيًّا[٣٨] شريطة أن يكون هذا البديل ذكرًا ويتمتع بصفات الذكورة إلى جانب إحاطة الطفل بالرعاية والاهتمام، أو بمعنى آخر ينبغي أن يكون البديل شخصية دافئة قادرة على منح المودة والحب للطفل وبذلك فإن نوعية الخصائص التي يتمتع بها بديل الأب تعد من العوامل التي تقلل من الآثار النفسية المترتبة على غياب الأب.

٢- ولعل العلاقة العاطفية القوية التي تربط الطفل بجماعة من الذكور قد تقلل من الآثار النفسية المترتبة على غياب الأب وفي هذا السياق نشير إلى إحدى

الدراسات التي تناولت بدائل الأبوين إذ اشتملت عينتها على ستة أطفال في سن ما قبل المدرسة، كان هؤلاء الأطفال فد فقدوا أبويهم أثناء الاعتقال في الحرب العالمية الثانية ولعل هذا الأمر أفضى بهم إلى العيش معًا في كل مكان ينقلون إليه إذ توطدت بينهم علاقات عاطفية قوية؛ ولقد انتهى بهم الحال إلى روضة إنكليزية إثر انتهاء الحرب[٣٩] وتشير وقائع هذه الدراسة إلى أن هؤلاء الأطفال لم يظهر عليهم أية دلالة تشير إلى تعرضهم إلى اضطراب نفسي بالرغم من المعاناة القاسية التي تعرضوا لها؛ وتعلل الدراسة سبب ذلك إلى العلاقات العاطفية القوية التي نشأت بينهم[٤٠].

وحقيقة الأمر أن هذه العلاقات كانت بمثابة عنصر الوقاية من الآثار النفسية المترتبة على غياب الأبوين وبالرغم من أن هذه الدراسة لم تخبرنا عن مستوى الذكورة لدى هؤلاء الأطفال -سواء كانت واطئة أو مرتفعة- فإنها تشير إلى مسألة مهمة ألا وهي أن البديل من الجنس نفسه قد يفضي إلى تقلل بعض الآثار النفسية المترتبة على غياب أحد الأبوين ولا سيما تلك الآثار المرتبطة بالدور الجنسي.

٣- إذا كانت الأم هي البديل عن الأب الغائب ولم يكن ثمة بديل ذكر ينبغي التركيز هنا على مسألتين:

المسألة الأولى: تتعلق بالاتجاهات التي تحملها الأم نحو الأب.
والمسألة الثانية: تتعلق بسعي الأم الدائب لتوفير نموذج مثالي.

وبقدر ما يتعلق الأمر بالمسألة الأولى نقول: إن الاتجاهات التي تحملها الأم نحو الأب تعد من المتغيرات المهمة في هذا الصدد إذ كلما كانت هذه الاتجاهات إيجابية؛ مال الطفل إلى التوحد بأبيه بالرغم من غيابه عنه فضلًا عن تذكير الطفل بالصفات الذكرية التي كان يتمتع بها، وهو الأمر الذين يجعل الطفل يحاكي

الأب في بعض تصرفاته بالرغم من غيابه عنه.

أما بصدد المسألة الثانية المتعلقة بسعي الأم الدائب لتوفير نموذج مثالي للطفل نقول: إن جذب انتباه الطفل إلى أحد النماذج الموجودة في البيئة المحيطة به توفر له فرصة نمذجة سلوكه طبقًا للخصائص الذكرية التي يتمتع بها هذا النموذج وتلك مسألة تساعده على إزالة الغموض الذين يكتنف دوره الجنسي، وما يتصل به من التزامات اجتماعية وكأن بالأم هنا تزوده بالخبرات المتعلقة بدوره الجنسي المرتقب.

٤- إن غياب الأب عن الطفل في عمر متأخر يكون أقل تأثيرًا على ذكورته مما لو حدث في عمر مبكر(٤١) ولعل ذلك يرجع إلى أن غياب الأب في السنوات المتأخرة من نمو الطفل يفضي إلى وضوح مدركاته عن هويته الجنسية وهذا الوضوح في الهوية الجنسية يعود في حقيقة الأمر إلى التأثير الفعال الذين يمارسه الأب على الطفل في سنواته الأولى وعلى ذلك فإن غياب الأب في السنوات المتأخرة من نمو الطفل سيكون أقل تأثيرًا على ذكورته.

٥- ومن العوامل التي تؤدي إلى تقليل الآثار النفسية المترتبة على غياب الأب زيادة عمليات التفاعل الاجتماعي الحادثة مع النماذج الموجودة في البيئة الاجتماعية ولاسيما التفاعل مع النماذج التي تتمتع بحكم خلقي عالٍ.

والحقيقية إن تفاعل الطفل مع النماذج الإيجابية سيفضي في المحصلة النهائية إلى تشكيل سلوكه الجنسي بما ينسجم والمعايير السائدة في الثقافة، وفي الوقت نفسه سيفضي هذا التفاعل إلى تعزيز خصائصه الذكرية النامية.

فرضيات البحث

١- ينخفض التنميط الجنسي لدى الأطفال الذين حرموا من الأب مقارنة بأقرانهم الذين يعيشون مع آبائهم.

٢- ينخفض التنميط الجنسي لدى الأطفال الذين حرموا من الأب بصورة مبكرة مقارنة بأولئك الذين حرموا منه بصورة متأخرة.

٣- ينخفض التنميط الجنسي لدى الأطفال الذين تحل الأم محل الأب الغائب في تنشئتهم مقارنة بأولئك الذين يتولى تنشئتهم أحد الذكور بديلًا عن الأب.

طريقة البحث

العينة

سُحبت عينة البحث الحالي من الأطفال الذكور الذين يواصلون الدراسة في المرحلة الابتدائية، وعلى وجه التحديد من تلاميذ الصف الخامس والسادس الابتدائي أولئك الذين فقدوا آباءهم، بسبب الوفاة الطبيعية أو بسبب الوفاة أثناء الخدمة العسكرية وبلغت بذلك عينة البحث الحالي (٥٠) تلميذًا.

كما سُحبت عينة من التلاميذ الذكور بعدد مماثل من أولئك الذين يعيشون مع آبائهم بهدف عقد مقارنة في التنميط الجنسي بين هاتين الفئتين ولقد تراوحت أعمار هؤلاء من المجموعتين بين (١١ - ١٢) سنة وقد حرص الباحث أن تكون عينة البحث الحالي مع عينة المقارنة من مستوى اجتماعي اقتصادي واحد بقصد المكافأة؛ إذ تشير الدراسات في هذا الصدد إلى أن عملية التنميط الجنسي تتأثر بالمستوى الاجتماعي الاقتصادي الذي تنتمي إليه أسرة الطفل؛ ولأن المستوى الاجتماعي الاقتصادي المتدني -كما تشير إلى ذلك الدراسات- يشدد على التدريب المبكر لعملية التنميط الجنسي دون غيره من المستويات الأخرى أصبح لزامًا على الباحث انتقاء عينته من هذا المستوى لذا سُحبت العينة الحالية من

الفئتين (التلاميذ الذين فقدوا آباءهم وأقرانهم) من إحدى المناطق السكنية في مدينة بغداد التي تتمتع بمستوى اجتماعي اقتصادي متدنٍ؛ واللافت للانتباه أن الأسر في مجتمع الدراسة تولي أهمية كبيرة لعمليات التدريب للدور الجنسي المرتقب للأبناء.

ومما يجدر ذكره أن المجتمع الأصلي للدراسة غير معروف إذ لا تتوفر عنه إحصاءات عن حجمه الأصلي، ولما كانت الإحصاءات غير معروفة فمن الصعوبة بمكان انتقاء عينة ممثلة للمجتمع الأصلي... وبذلك تصبح عينة الدراسة حالية لا احتمالية ولما كانت كذلك فقد صحبت بطريقة عمدية أي العدد المتاح من التلاميذ الذين فقدوا آباءهم.

الأداة

اعتمد البحث الحالي على أداة جاهزة أعدت لقياس التنميط الجنسي للأطفال الذكور وهي عبارة عن اختبار صِوَرِي إذ يشتمل على عدد من الصور التي تعكس طبيعة البيئة الاجتماعية التي أعد فيها هذا الاختبار، ولقد عمد معد الاختبار بعد إجراء مسح للدراسات التي تناولت التنميط الجنسي إلى تضمين اختبار النشاطات المتعلقة بالأطفال الذكور وألعابهم وملابسهم مع مراعاة طبيعة البيئة الاجتماعية في كل النشاطات والألعاب والملابس المتعلقة بالأطفال؛ لكي لا تبدو غريبة عنهم إلى جانب سهولة معرفتها وتمييزها عن تلك المتعلقة بالإناث.

إن الاختبار الحالي يتألف من (٢٥) زوجًا من الصور إذ يكون الزوج الأول ملائمًا لجنس الذكور والزوج الثاني من الصور ملائمًا لجنس الإناث بقصد اختبار قدرة الطفل على تحديد الصورة الملائمة لجنسه.

وعلى ذلك بدأت الدراسة بعرض زوج من الصور على كل طفل، ثم بعد ذلك يطلب منه أن يخبر الباحث عن محتواها، ثم الإشارة إلى الصورة التي

يفضلها مع مراعاة الترتيب عند تقديم الزوج الواحد من الصور، بمعنى إذا كان الزوج الأول قد قدمت فيه الصورة الذكرية أولًا ثم الصورة الأنثوية ثانيًا فإن الزوج الثاني ينبغي أن تقدم فيه الصورة الأنثوية أولًا ثم الصورة الذكرية ثانيًا وهكذا إلى الزوج (٢٥) ولعل هذا الإجراء في تقديم الصور يجعل الاستجابة غير نمطية.

لا بد من الإشارة في هذا السياق أن بعض صور الاختبار الحالي اشتملت على تنبيهات تعكس البيئة الكردية التي أعد فيها الاختبار، ومنها على وجه التحديد الملابس إذ عكست الملابس في بعض الصور الزي الكردي المتعارف عليه هنا، ولتلافي ذلك عمد الباحث إلى استبدال هذه الصور بصور أخرى تعكس الزي العربي المتعارف عليه في مدينة بغداد.

إن الاختبار الحالي يتمتع بخصائص سايكومترية فلقد استخرج صدق المحتوى من خلال عرضه على مجموعة من الخبراء الذين أقروا صلاحيته لقياس الظاهرة قيد الدراسة فضلًا عن كون صوره واضحة ومفهومة، كما استخرج الثبات بطريقة إعادة الاختبار وقد بلغ (٠.٩١)[٤٢] وهو معامل ثبات عال.

أما طريقة التصحيح المعتمدة في هذا الاختبار فقد أُتُّبِعَت على النحو الآتي:

يعطى الطفل درجة واحدة في حال تفضيله الصورة الدالة على الدور الذكري ويعطى (صفرًا) في حال تفضيله الصورة الدالة على الدور الأنثوي، وبذلك فإن درجات كل طفل تتراوح بين (صفر -٢٥)[٤٣].

إذا نحن ألقينا نظرة على الدرجات التي حصل عليها الأطفال من الفئتين نجد أن أوطأ درجة حصل عليها الأطفال الذين فقدوا آباءهم هي (٩) وأعلى درجة حصلوا عليها هي (١٩) في حين أن أوطأ درجة حصل عليها أقرانهم من الذين يعيشون مع آبائهم هي (١٧) وأعلى درجة حصلوا عليها هي (٢٥).

النتائج

١ - إن الكشف عن مستوى التنميط الجنسي لدى الأطفال الذكور الذين فقدوا آباءهم يستدعي الأمر إجراء مقارنة مع أطفال آخرين يعيشون مع آبائهم في المتغير نفسه، ولعل النتيجة التي تسفر عنها هذه المقارنة ستقرر مستوى التنميط الجنسي للأطفال من فاقدي الأب.

لقد عولجت البيانات الحالية باستعمال الاختبار الثاني لعينتين مستقلتين، وذلك الاختبار دلالة الفروق بين متوسطي المجموعتين من الأطفال فاقدي الأب وأقرانهم على اختبار التنميط الجنسي، وكانت نتيجة القيمة التائية المحسوبة (١٨.٨٢٧) وهي دالة إحصائيًا عند مستوى (٠.٠٥) والجدول (١) يوضح ذلك وهذا يعني أن ثمة فروقًا بين المجموعتين، وعند ملاحظة المتوسطات لكل من المجموعتين يتبين أن الفروق كانت لصالح الأطفال الذين يعيشون مع آبائهم ولعل ذلك يشير صراحة أن مستوى التنميط الجنسي للأطفال من فاقدي الأب منخفض مقارنة بأقرانهم وبذلك تكون الفرضية الأولى قد تحققت.

الجدول (١)
يوضح دلالة الفروق بين متوسطي الأطفال الذين فقدوا آباءهم وأقرانهم على اختبار التنميط الجنسي

الأطفال الذكور من فاقدي الأب وأقرانهم	المتوسط	الانحراف المعياري	القيمة التائية المحسوبة	القيمة التائية الجدولية	الدلالة عند مستوى ٠.٠٥
الأطفال الذين فقدوا آباءهم	١٣.٠٢	٢.٦٠	١٨.٨٢٧	١.٩٨٠	دال
الأطفال الذين يعيشون مع آبائهم	٢١.٨٤	٢.٠٥			

٢- إن الكشف عن الفروق في التنميط الجنسي تبعًا لنوع الحرمان من الأب يقتضي أن يصنف الأطفال فاقدي الأب إلى فئتين:

فأما الأولى: فهي فئة الحرمان المبكر وهذه الفئة تشتمل على الأطفال الذين حرموا من آبائهم في عمر (٥) سنوات فأقل وقد بلغ عددهم (٢٤) طفلًا.

وأما الثانية: فهي فئة الحرمان المتأخر وتشتمل على الأطفال الذين حرموا من آبائهم وهم في عمر ست سنوات فأكثر وقد بلغ عددهم (٢٦) طفلًا ولقد اعتمد هذا التصنيف استنادًا إلى الدراسات التي أجريت في هذا الصدد وعولجت البيانات المتعلقة بهاتين الفئتين باستعمال الاختبار التائي لعينتين مستقلتين، وذلك لاختبار دلالة الفروق بين متوسطي هاتين المجموعتين من الأطفال الذين حرموا من آبائهم بصورة مبكرة وأولئك الذين حرموا منه بصورة متأخرة وكانت نتيجة القيمة المحسوبة (٠.١٦٤) وهي غير دالة إحصائيًا عند مستوى (٠.٠٥) والجدول (٢) يوضح ذلك ولعل ذلك يعني غياب الفروق بين المجموعتين وإذا نحن عدنا إلى المتوسطات لكل من هاتين المجموعتين نجد أنها متقاربة وهو الأمر الذين يعني انتفاء الفروق بينها، هذا يشير صراحة إلى أن نوع الحرمان سواء كان مبكرًا أم متأخرًا لا يؤثر على عملية التنميط الجنسي للأطفال الذكور وبذلك فإن الفرضية الثانية لم تتحقق.

الجدول (٢)

يوضح دلالة الفروق بين متوسطي الأطفال الذين حرموا من آبائهم بصورة مبكرة وأولئك الذين حرموا منه بصورة متأخرة على اختبار التنميط الجنسي

نوع الحرمان	المتوسط	الانحراف المعياري	القيمة التائية المحسوبة	القيمة التائية الجدولية	الدلالة عند مستوى ٠.٠٥
الأطفال الذين حرموا من آبائهم بصورة مبكرة	١٣.٠٨	٢.٨٣	٠.١٦٤	٢	غير دال
الأطفال الذين حرموا من آبائهم بصورة متأخرة	١٢.٩٦	٢.٤٢			

٣- إن الكشف عن الفروق في التنميط الجنسي تبعًا لنوع بديل الأب يقتضي أن يصنف الأطفال إلى فئتين:

فأما الأولى: فهي فئة الأم بديلًا عن الأب الغائب وتشتمل على (٣٣) طفلًا.

وأما الثانية: فهي فئة بديل الأب من الأقارب الذكور الذين يمتُّون للطفل بصلة قرابة، قد تكون من الدرجة الأولى أو الثانية كالأجداد أو الأعمام أو الأخوال وقد بلغ عدد هذه الفئة (١٧) طفلًا. وبعد ذلك عولجت البيانات المتعلقة بهاتين الفئتين باستعمال الاختبار التائي لعينتين مستقلتين، وذلك لاختبار دلالة الفروق بين متوسطي هاتين المجموعتين من الأطفال الذين ترعاهم الأم بديلًا عن الأب وأولئك الذين رعاهم الأقارب من الذكور. وكانت نتيجة القيمة التائية المحسوبة (٧.٤٦٣) وهي دالة إحصائيًّا عند

مستوى (٠.٠٥) والجدول (٣) يوضح ذلك.

وهذا يشير حقيقة إلى أن ثمة فروقًا بين المجموعتين وعند ملاحظة المتوسطات لكل من المجموعين يتبين أن الفروق كانت لصالح الأطفال الذين يرعاهم الأقارب من الذكور، ولعل ذلك يعني أن الأم بوصفها بديلًا عن الأب الغائب تفضي رعايتها إلى خفض التنميط الجنسي لدى الأطفال. وبذلك فإن الفرضية الثالثة قد تحققت.

الجدول (٣)

يوضح دلالة الفروق بين متوسطي الأطفال الذين ترعاهم الأم بديلًا عن الأب وأولئك الذين يرعاهم الأقارب من الذكور على اختبار التنميط الجنسي

نوع البديل	المتوسط	الانحراف المعياري	القيمة التائية المحسوبة	القيمة التائية الجدولية	الدلالة عند مستوى ٠.٠٥
الأطفال الذين ترعاهم الأم بديلًا عن الأب	١١.٦٧	١.٨٧	٧.٤٧٣	٢	دال
الأطفال الذين يرعاهم الأقارب من الذكور	١٥.٦٥	١.٦٢			

مناقشة النتائج

أشارت النتائج إلى أن التنميط الجنسي للأطفال الذكور الذين فقدوا آباءهم كان منخفضًا مقارنة بأقرانهم، والسبب يعود إلى فقدانهم النموذج الذي يتم بموجبه تشكيل سلوكهم الجنسي وهو الأمر الذي أفضى إلى صعوبة تكوين مفهوم واضح عن ذاتهم الذكرية كما تشير إلى ذلك البيانات، كما أن

غياب الأب عن عالم هؤلاء الأطفال قد قلل من الخبرات التي تزودهم بمعلومات واضحة عن أدوارهم الجنسية المرتقبة.

وتشير النتائج التي أسفرت عنها الدراسة الحالية أن نوع الحرمان من الأب سواء كان هذا الحرمان مبكرًا أو متأخرًا لم يؤثر على عملية التنميط الجنسي، ولعل ذلك يرجع إلى عدد من الأسباب منها:

أن زيادة التفاعل الاجتماعي مع النماذج الموجودة في البيئة الاجتماعية ولاسيما التفاعل مع النماذج التي تتمتع بحكم خلقي عال قد كان واحدًا من الأسباب التي أدت إلى معرفة هؤلاء الأطفال بخصائصهم الذكرية، وقد يعود السبب في انتفاء الفروق الحاصلة في التنميط الجنسي تبعًا لمتغير نوع الحرمان إلى الأم التي تعد بديلًا عن الأب الغائب. وتثبيتًا لهذا الرأي تشير البيانات ا لأصلية إلى أن (٦٦ ٪) من الأطفال تتولى الأم تنشئتهم نيابة عن الأب الغائب وهذا يعني صراحة أن لها أثرًا في عملية التنميط الجنسي وفي هذا الصدد يمكن أن نحدد أثرها على نحوٍ واضح في أمرين اثنين:

فأما الأول: أن الأم لا يمكن أن تحدث أثرًا يذكر في عملية التنميط الجنسي إلا إذا كانت تحمل اتجاهًا إيجابيًّا نحو الأب الغائب، وهو الأمر الذي يُفضي بهؤلاء الأطفال إلى التوحد مع ذات مثالية وذلك بتذكيرهم بالصفات الإيجابية التي كان يتمتع بها الأب قبل أن يودع الدنيا.

وأما الأمر الثاني: الذي يبرز فيه أثر الأم في عملية التنميط الجنسي هو محاولاتها المستمرة إلى جذب انتباه الأطفال إلى النماذج الموجودة في البيئة المحيطة بهم؛ بهدف نمذجة الاستجابات الصادرة عنهم ولا سيما الاستجابات الدالة على الذكورة على أننا نحذر من تعميم هذه النتيجة بسبب أن الكثير من الدراسات قد توصلت إلى نقيض هذه النتيجة، ولعل هذا الأمر يدعونا إلى

التوصية بإجراء بعض الدراسات لحل هذه المشكلة.

ومن النتائج التي أسفرت عنها الدراسة الحالية:

أن نوع بديل الأب يعد متغيرًا مهمًّا في عملية التنميط الجنسي فلقد وجد أن الأم بوصفها بديلًا عن الأب الغائب يفضي إشرافها إلى خفض التنميط الجنسي لدى الأطفال الذكور والسبب يعود إلى أن تولي الأم عملية التنشئة قد أدى إلى إخفاقها في توجيه الأطفال الذكور فيما يخص أدوارهم الجنسية المرتقبة، كما يعود السبب إلى أن الأم أصبحت تمثل السلطة العليا في الأسرة؛ ولأنها تمثل السلطة العليا أي أسرتها بحكم مهمات دورها الجديد فقد أخذ هؤلاء الأطفال ينمذجون بعض استجاباتها مما ترتب على ذلك بروز مظاهر سلوكية لديهم أقرب إلى النمط الأنثوي منها إلى النمط الذكري.

الهوامش

(1) D.G Myers. Psychology. Ist ed. (New York: worth Publishers, inc, 1986), p 135.

(2) E.M. Hetherington and R.D Parke child psychology: A conterm porary view pint, 3rd ed. (New York: Mc Graw- Hill book company, 1986). P. 623.

(٣) جون كونجر وآخرون. سايكولوجية الطفولة والشخصية ترجمة أحمد عبد العزيز سلامة وجابر عبد الحميد جابر. (القاهرة: دار النهضة العربية للطباعة والنشر ١٩٧٠) ص ٣٣٢.

(٤) بول موسن وآخرون: أسس سايكولوجية الطفولة والمراهقة طـ١ ترجمة أحمد عبد العزيز سلامة (الكويت: مكتبة الفلاح ١٩٨٦) ص ٢٦٨.

(5) L.A. Pervein. Personality: Theory and Research, 4th ed. (New York: John wiley and sons, 1984), p.91.

(٦) سول شيد لنجرن التحليل النفسي والسلوك الجماعي ط٢ ترجمة سامي محمود على (القاهرة: دار المعارف بمصر ١٩٧٠) ص ٢٨.

(٧) محمد عماد الدين إسماعيل: الأطفال مرآة المجتمع النمو النفسي الاجتماعي للطفل في سنواته التكوينية (الكويت المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب عالم المعرفة ١٩٨٦) ص ٢٧٩.

(8) W.Mischel. sex- typing and socializartion. In: H. mussen (ed). Carmichael's Manual of child psychology, 3 rd, vol. 2. (New York: John wiley and sons, 1970), p. 29

(9) Myers, psychology. P129

J.W.Vander Zanden. Sociology: the core, 4th ed. (New York; Mc Graw-Hill, inc, 1996).p. 229.

(10) Mischel. Sex- typing and socialization, p.38.

(11) A. Bandura. Social Learning theory. (New Jersey- prentice- Hall, inc. Englewood cliffs. 1977), p. 88-89.

(١٢) محمود شهال حسن سايكولوجية الفرد في المجتمع: مدخل: ط١ (القاهرة: دار الآفاق العربية ٢٠٠١) ص ٦٤.

(١٣) محمد رفقي محمد فتحي. في النمو الأخلاقي: النظرية البحث التطبيق ط ١ (الكويت: دار القلم ١٩٨٣) ص ١٩.

(١٤) موسن وآخرون أسس سايكولوجية الطفولة والمراهقة ص ٢٧٠.

J. W. Bryan and Z. Luria. Sex- Role Learning: Atest of the selective attention hypothesis. Child development. Vol. 49. No.l, 1978, p. 13 Vander Zanden, sociology: The core, p, 229.

(15). A.C stewart and J.B koch. Children development through adolescence (NEW YORK ..JOHN WILE 1983) P.256

(16) Myers, Psycholohgy. P.130.

(17) A.Baum and et al. social psychology. (New York: Random House. 1985),295.

R.J. stern berg. Path ways to psychology. (fort worth: Har court Brace college publishers. 1997), P.87

(18) Myers psychology p130.

(١٩) سونيا هانت وجينيفر هيلت: نمو شخصية الفرد والخبرة الاجتماعية ترجمة قيس النوري ط١. (بغداد: دار الشئون الثقافية العامة ١٩٨٨) ص ٢٥٨.

(20) Hetherington and parke, child psychology: A contemporary view point, p.638.

(٢١) المصدر نفسه ص ٦٣٨.

(٢٢) المصدر نفسه ص ٦٣٩.

(٢٣) المصدر نفسه ص ٦٣٩.

(٢٤) موسن وآخرون أسس سايكولوجية الطفولة والمراهقة ص ٢٩٦.

(٢٥) المصدر نفسه ص ٣٥٦.

(26) Lm.Stolz. influences on parent behavior. (London: Tavistock :publication , 1967), P. 113

(٢٧) أميرة آبدة وسهى أديب التنشئة التمايزية للجنسين نحو النشاط الحركي في الكتب المنهجية للمرحلة الابتدائية دراسات العدد ٦ (١٩٩٤) ص ٢٠.

(٢٨) رشيدة عبد الرءوف رمضان آفاق معاصرة في الصحة النفسية للأبناء ج١ ط١، (القاهرة: دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع ١٩٩٨)ص ١٦.

(٢٩) هانت وهيلتن نمو شخصية الفرد والخبرة الاجتماعية ص ١٢٩.

كريم شريف عبد الله القرجاني أثر غياب الأب في اكتساب الدور المنمط جنسيًا للأبناء الذكور (بغداد: جامعة بغداد رسالة ماجستير غير منشورة ١٩٨٩) ص ٧٩.

محمود شمال حسن صغار في أزمة: دراسة الآثار النفسية والاجتماعية الناجمة عن تعرض الأطفال للأزمة الاقتصادية بحث ألقي في المؤتمر العلمي العربي الأول للمدة ٢٤- ٢٦ تشرين الثاني بغداد ١٩٩٨.

محمود شمال حسن ضغوط الحياة ومقتضيات العصرنة دراسات اجتماعية السنة ٢ العدد ٦ (صيف ٢٠٠٠) ص ٦٩.

حسن سايكولوجية الفرد في المجتمع: مدخل ص ١٤٩.

(30) H.B Biller father absence, diverse and personality development . in M. E. Lamb (ed). The role of father in child development. (New York : John Wiley and sons, 1981), P. 494.

(31) H.B. Biller. The father and sex role development in; Lanb. The role of father in child develoment, p. 337.

موسن وآخرون أسس سايكولوجية الطفولة والمراهقة ص ٢٦٩

(32) J. Nash. The father in contemporry culture and current psychological Literature. Child developmjent4. vol. 36, No. 1, 1965, P. 282.

إسماعيل الأطفال مرآة المجتمع : النمو النفسي الاجتماعي للطفل في سنواته التكوينية ص٢٨٤

(33) P.H Mussen and et al. essentials of child development and personality. (New York : har per and Row publishers, 1980), P. 207.

(34) J. McCord and et al . some effects of parental absence on Male children.

Journal of abnormal and social psychology, vol. 64, No. 5, 1962, P. 363.

Biller, the father and sex role development, P. 335.

(٣٥) محمد زياد حمدان غياب الأب وأثره في تطور شخصية الطفل الباحث السنة ٥ العدد ٢٩- ٣٠ (أيلول- كانون الأول ١٩٨٣) ص ٨٨.

(36) Nash, the father in contemporary culture and current psychological literature, p. 277.

Biller, the father and sex role development. P. 336.

(٣٧) رمضان آفاق معاصرة في الصحة النفسية للأبناء ص ٤٩.

(٣٨) القرجتاني أثر غياب الأب في اكتساب الدور المنمط جنسيًا للأبناء الذكور. ص ٨٣.

(٣٩) هانت وهيلتن نمو شخصية الفرد والخبرة الاجتماعية ص ١٢٧.

(٤٠) المصدر نفسه ص ١٢٨.

(٤١) فاروق السعيد جبريل أثر غياب (الأم- الأب) على اكتساب دور الجنس للأبناء: دراسة مقارنة بالأبناء المقيمين مع والديهم مجلة كلية التربية بالمنصورة العدد ٨ (١٩٨٧) ص ٣٨١- ٣٩٩.

القرجتاني أثر غياب الأب في اكتساب الدور المنمط جنسيًا للأبناء الذكور ص ٧٩.

Biller, the father and sex role development, P. 337.

E.H. Hetherington. Effects of paternal absence on sex - typed behaviors in negro and white preadolescent males.

Journal of personality and social psychology. Vol. 4, No. 1, 1966, P. 89.

Hetherington and Parke, child psychology: A contemporary view point, p. 645.

(٤٢) القرجتاني أثر غياب الأب في اكتساب الدور المنمط جنسيًا للأبناء الذكور ص ٧٠- ٧١.

(٤٣) المصدر نفسه ص ٧٤- ٧٥.

التوجهات القيمية السائدة
في المطبوعات الموجهة
إلى الأطفال

نقصد بالمطبوعات الموجهة إلى الأطفال، تلك المطبوعات التي تشتمل على النتاج الفكري والثقافي، التي يراد منها تشكيل اتجاهات هذه الفئة بطريقة تتناسب والأيديولوجية السائدة في المجتمع، وفي هذا السياق سنركز على نوعية أصناف التوجهات القيمية السائدة في المادة المكتوبة في هذه المطبوعات.

أ- التوجهات القيمية السائدة في المقررات الدراسية

تعد المقررات الدراسية، إحدى الوسائل للتأثير في اتجاهات المتعلمين وتعديلها بطريقة تتناسب مع توجيهات الخطاب التربوي، ولما كانت كذلك، فإن الأمر يقتضي أن تكون هذه المقررات فاعلة في إيصال الخطاب التربوي، ولكي تكون كذلك، ينبغي أن يكون هذا الخطاب على درجة كبيرة من الاتساق في إيصال رسائله إلى عموم المتعلمين، ذلك أن التناقض وعدم الاتساق في إيصال الرسائل الإقناعية، ستجعله غير مؤثر في تشكيل الاتجاهات المرغوب فيها من جانب الفلسفة التربوية، ومن ثم سيصرف انتباه المتعلمين عن متابعة رسائله هذه. وعلى ذلك فإن فاعلية المقررات الدراسية، تعتمد بالدرجة الأساسية على فاعلية الخطاب التربوي. فكلما كان الخطاب التربوي فاعلًا في إيصال الرسائل إلى المتعلمين بطريقة متسقة وجذابة، كان أميل إلى تنمية توجهات قيمية تنسجم مع طروحات الفلسفة التربوية، وكلما كان الخطاب التربوي ضعيفًا في إيصال رسائله غدا ضعيفًا في تشكيل الاتجاهات المرغوب فيها.

قبل الإسهاب في الحديث عن التوجهات القيمية التي تعمد المؤسسة التربوية إلى إشاعتها عبر المقررات الدراسية، نجد من الضروري، الإشارة إلى الأساليب التي يتم من خلالها اكتساب هذه التوجهات، ثم نعرج بعد ذلك إلى الحديث عن المقررات الدراسية وأثرها في اكتساب التوجهات القيمية.

أساليب اكتساب التوجهات القيمية

لا بد من التسليم هنا، إلى أن الطفل يأتي إلى الحياة وهو لا يعرف شيئًا عما تعارف عليه الناس في ثقافته. وما إن يبدأ بالكلام والحوار مع الآخرين حتى يأخذ بالخطوات الأولى التي تؤهله للدخول إلى فهم العالم المحيط به وما يحكمه من معايير وأخلاق وقيم ومثل وتقاليد، تجعل من الحياة في الثقافة التي يعيش في كنفها وديعة ومسالمة لتساعده على النمو، لكي يصبح عضوًا فعَّالًا في بناء حضارته في المستقبل القريب.

إن عملية فهم الثقافة وما يحكمها من قوانين ومعايير ومثل، تقتضي منه أن يكون على اتصال بها. ويتحقق هذا الاتصال عن طريق قنوات التنشئة الاجتماعية التي بدورها، تنقل إليه ما يدور في الثقافة السائدة، ففي أعمار مبكرة، تبدأ قنوات التنشئة الاجتماعية بتعليم الفرد الجماعة المرجعية التي يرجع إليها عادة عند تقويم سلوكه ومعرفة ما يدور في عالمه الاجتماعي.

والواقع أن هذه العملية، أي: الرجوع إلى الجماعة المرجعية تمكن الفرد من تصحيح مدركاته[١].

ومحاولة النظر إلى الأحداث والعلاقات والأفراد بطريقة متطابقة مع توجهات جماعته المرجعية؛ ولكي يتصرف الفرد بموجب توجهات جماعته المرجعية والالتزام بالمعايير السائدة فيها.

وما إن ينمو الطفل بدنيًّا واجتماعيًّا حتى يبحث عن جماعة من الأقران يقضي معهم أوقاتًا معينة في اللعب، وبما أن اللعب ينطوي على قواعد ينبغي مراعاتها من المشاركين فإن تلك القواعد في اللعب، إنما هي تهيئه بطريقة غير مباشرة لقبول معايير الجماعة[٢] والاتفاق معهم عليها.

وعندما يبلغ السادسة من العمر، يدخل المدرسة إذ تتسع شبكة علاقاته

الاجتماعية، فيجد أن هناك أطفالًا بعمره يشاركونه الصف الدراسي، وهناك أيضًا راشدون يعلمونه قواعد القراءة والكتابة وهناك إدارة تربوية، مما يجعله يراعي القواعد والآداب الموجودة، ثم لا ننسى الدور الذي تؤديه المقررات الدراسية في تنمية اتجاهات تساعده على تحقيق التوافق مع المحيط الاجتماعي.

والدين الذي يدين به الفرد يؤدي هو الآخر دورًا في تعليم الفرد الالتزام بالقواعد الخلقية العامة، وبالطبع إن هذه القواعد التي يقرها الدين عادة ما تكون مقبولة من المجتمع، وبموجب ذلك، فإن الطفل منذ نعومة أظفاره يتعلم الأنماط السلوكية المقبولة دينيًا وفي الوقت نفسه، يتعلم الأنماط السلوكية التي يرفضها الدين، تلك الأنماط التي يعدها كفرًا وحرامًا ينبغي على الفرد تجنبها، وعلى ذلك، فإن الفرد يتعلم أن الالتزام بالمعايير التي أقرت دينيًا إنما هي من باب طاعة الله -سبحانه وتعالى- وعندما بلغت المجتمعات البشرية شأوًا واسعًا من التعقيد استدعى الأمر إضافة وسائل أخرى للضبط الاجتماعي، فضلًا عن قنوات التنشئة، فصار هناك القانون والسلطة لتنظيم العلاقات بين الأفراد وحثهم على الالتزام بالتشريعات والنظم والقوانين، وعند المخالفة يتعرض الفرد إلى ألوان شتى من العقوبات، وهذا يعتمد بطبيعة الحال على نوع المخالفة ومقدار الضرر الناجم عنها.

المقررات الدراسية وأثرها في اكتساب التوجهات القيمية

تعد المؤسسة التربوية إحدى القوى الثقافية المؤثرة في تشكيل سلوك الفرد، وعادة ما تعتمد هذه المؤسسة في التشكيل السلوكي على مصادر متعددة، ولعل من أبرزها:

المقررات الدراسية والملاك التدريسي من المعلمين والمدرسين[٣] بوصفهم نماذج يطلب منها أن تنمذج سلوك المتعلمين وفقًا لتوجهات المؤسسة التربوية. فإذا أخذنا المقررات الدراسية وهو ما يهمنا هنا، نجد أنها لا تعدو أن تكون

وسيلة اتصال بين النظام التربوي والمتعلمين؛ إذ يتم من خلالها إيصال الرسائل التي يحث عليها الخطاب التربوي، وهي في الوقت نفسه تمثل انعكاسًا لتوجهات المجتمع في الحياة أو بمعنى آخر، إن المجتمع يسعى باستمرار إلى إيصال فلسفته في الحياة إلى أبنائه عبر عديد من الوسائل، والكتب الدراسية، هي إحدى هذه السوائل التي يتم من خلالها توضيح فلسفته بطريقة منظمة ومتسقة مع طروحات القنوات الأخرى من التنشئة الاجتماعية.

فإن كانت فلسفة المجتمع تدعو إلى الاتجاه الفردي كما هو الحال في البلدان الرأسمالية، فقد يظهر هذا الاتجاه واضحًا وجليًّا في الكتب الدراسية، وذلك ببث الأنساق القيمية التي تعزز هذا الاتجاه، وإن كانت الفلسفة تدعو إلى الاتجاه الجماعي كما هو الحال في البلدان التي تدين بالاشتراكية، فإن هذا الاتجاه يبرز واضحًا في الكتب الدراسية أيضًا، وذلك ببث أنساق قيمية تعززه لدى المتعلمين وهكذا الأمر مع الفلسفات الأخرى.

نخلص إلى القول: إن المقررات الدراسية ينبغي أن تكون فاعلة ومؤثرة في المتعلمين لكي تتمكن من إتمام عملية التشكيل السلوكي، ولأجل أن تكون فاعلة ومؤثرة، فإن ثمة شروطًا معينة ينبغي توفرها، ومن بين هذه الشروط:

١- إن المقررات الدراسية لكي تكون فاعلة في تشكيل سلوك المتعلمين لا بد أن تحدث علاقة ارتباطية بين ما يعرض من تنبيهات على السطور والاستجابة الصادرة عنهم؛ ولكي تحدث هذه العلاقة، فإن ذلك يقتضي أن تستجر المنبهات المزيد من الاستجابات، عند ذاك نقول: إن العلاقة قد حدثت، وهذا يعني: أن الأفراد قد اكتسبوا الأنماط السلوكية التي يدعو إليها النظام التربوي، على سبيل المثال، إذا حدث أن فسر المتعلمون الظواهر الطبيعية استنادًا إلى ما تم تعلمه في الفيزياء والكيمياء بعيدًا عن التفسيرات اللاعقلانية.

عند ذاك، يمكننا القول: إن ثمة تغييرًا قد حصل في اتجاهاتهم وهو ما يهدف إليه النظام التربوي. وتكون الحالة معاكسة أي: عدم حدوث علاقة ارتباطية عندما تكون التنبيهات الموجودة غير قادرة على أن تستجر استجابات معينة، وفي ذلك إشارة إلى أن النظام التربوي لم يتمكن من إحداث تغيير في الاتجاهات لدى المتعلمين.

٢- لا بد من توخي الواقعية في تناول الموضوعات، إذ إن اللجوء إلى النموذج اليوتوبي (المثالي أو الخيالي) سينفر الأفراد منها ومن ثم عدم حصول العلاقة الشرطية، وذلك يعود إلى أن النموذج اليوتوبي يتناقض مع معطيات الواقع اليومي، ولما كان النموذج اليوتوبي كذلك، فإن الفرد سيجد نفسه يعيش في محيط غير محيطه ووقائع لم يألفها، بل إن الحديث عنها يغدو غريبًا عنه. لذا سيصرف انتباهه عنها، ومن ثم عدم حصول تلك العلاقة الشرطية.

٣- لكي تحصل العلاقة الشرطية، لا بد للمقررات الدراسية من الابتعاد عن التعبئة للخطاب السلطاني، وهذا سيساعد على تقوية العلاقة حال تشكلها، وعلى النقيض من ذلك، إن مثل هذه العلاقة ستنطفئ عندما تتناول هذه المقررات نشاطات السلطان.

٤- ومن المفيد الإشارة، إلى أن المقررات الدراسية لا بد لها من مراعاة البساطة والوضوح والدقة في عرض الموضوعات ومن ثم تسلسلها من الناحية المنطقية والابتعاد عن الحشو والإطالة، كما ينبغي لها أن تبتعد عن الأسلوب الخطابي، فقد ينقلب وبالًا عليها، فبدلًا من أن تتغير اتجاهات الناشئة بما يتناسب وتوجهات النظام التربوي، ربما يحدث العكس، فقد تتشكل اتجاهات سلبية نحو هذه المقررات، ومن ثم النفور منها والسخرية من موضوعاتها.

٥- من المفضل أن يكون ثمة توازن في بث نماذج البشر في المقررات الدراسية،

وهذا معناه، أن لا يكون ثمة نموذج معين من البشر يشيع في مرحلة دراسية معينة، وتخلو المراحل الدراسية الأخرى منه، أو أن يشيع في كل المقررات للمراحل كافة وضعف تأكيد النماذج الأخرى من البشر[٤].

وما نريد قوله هنا: إن التوازن في بث نماذج البشر المختلفة عبر المراحل الدراسية المختلفة، أمر لا مندوحة منه، فذلك يساعد على إشاعة الاتجاهات التي يدعو إليها النظام التربوي.

من ذلك يتضح، أن هذه الشروط هي التي تجعل المقررات الدراسية فاعلة ومؤثرة في تشكيل التوجهات القيمية لدى المتعلمين، وفي الوقت نفسه تسهم في تشكيل اتجاهاتهم نحو موضوعات اجتماعية مختلفة، تنسجم مع أهداف الفلسفة التربوية السائدة.

وبعد، لماذا التركيز على النسق القيمي، ولا سيما في المقررات الدراسية؟

لكي نتوصل إلى حقيقة الاهتمام بالنسق القيمي، يكفينا هنا أن نستعرض وظيفته النفسية والاجتماعية:

١- إن النسق القيمي هو بمثابة أحكام أو معايير لتقويم السلوك، أو بعبارة أخرى، وإن النسق القيمي يعد قاعدة يتم من خلالها تفضيل الأشياء والمفاهيم المرتبطة بالحياة الاجتماعية.

٢- يهدف النسق القيمي بين ما يهدف المحافظة على التماسك الاجتماعي، ففي إشاعة قيم تؤكد التعاون والمساواة والتعاطف والتراحم ومساعدة الآخرين في وقت الأزمات، فمن المؤكد أن إشاعة مثل هذه القيم بين أفراد المجتمع، سيزيد من التماسك بين فئاته الاجتماعية، وعلى النقيض من ذلك يزداد المجتمع تفككًا وانحلالًا، عندما تشيع بين أفراده قيم تؤكد قطع صلة الرحم والتمييز والتفرقة والمنفعة الشخصية، وغياب العدالة

وعدم مساعدة الآخر الذي يقع في محنة أو طارئ.

٣- إن النسق القيمي يضفي على الحياة صفة الإنسانية، انطلاقًا من القول القائل: إن القيم صفة يتميز بها الإنسان عن سائر المخلوقات الأخرى، إذ إن العلاقات بين الإنسان والإنسان هي علاقة إنسانية تستند إلى التعاطف والمودة والتراحم والتقدير والاحترام أكثر من كونها علاقة تراتبية كما يشيع في ذلك بين الحيوانات. وبذلك فإن النسق القيمي يعمد إلى أنسنة العلاقات بين الأفراد.

٤- إن النسق القيمي يحدد طبيعة العلاقات السائدة بين الأفراد، وهذا يعني أن شيوع قيم تؤكد وحدة الجماعة والتسامح ومجاراة النمط الاجتماعي الشائع والعدالة والمساواة والعمل ، نتوقع أن تكون العلاقات بين الأفراد علاقات تعاونية وعلى العكس تكون العلاقات السائدة بين الأفراد تنافسية عدائية، في حالة شيوع قيم تؤكد الكراهية والحقد والعداء وعدم الاهتمام بالآخرين.

٥- من الضروري للفرد الذي يصل إلى مستوى النضج العقلي والاجتماعي والانفعالي والبدني، أن تكون له فلسفة عن الحياة، بهدف تحسس الوجود[٥] ومحاولة إضفاء معنى عليه بمعنى آخر: إن تكوين فلسفة عن الحياة تجعلها أكثر معنى، فضلًا عن أن الفرد يتخذ من الفلسفة التي كوَّنها عن مسيرة حياته، الموجه والمتحكم بنشاطاته وحياته، وفي انتقاء سلوكه.

ووفقًا لهذا الرأي، يصبح النسق القيمي تعبيرًا عن الفلسفة التي يتخذها الفرد في حياته.

واضح أن النسق القيمي له أهمية كبيرة في الحياة الاجتماعية، فلولاه لأصبحت الحياة داخل المجتمع البشري عديمة المعنى، فضلًا عن إشاعة الاضطراب والصراع فيها، وعلى ذلك، فإن النسق القيمي يجعل الحياة أكثر عقلانية.

لنمعن النظر الآن في التوجهات القيمية السائدة في مقرراتنا الدراسية، لنكشف بعد ذلك الأصناف التي حاولت تأكيدها.

إن المتتبع للتوجهات القيمية السائدة في مقرراتنا الدراسية، يجد أنها لم تزل بعد تحظى باجتهاد لجان التأليف، وإن ثمة عدم اتفاق على الأهداف التربوية الواجب الأخذ بها، فهذه الأهداف في حقيقة الأمر، إن أخذ بها مجتمعة فقد تؤدي إلى إحداث بعض التأثيرات على مستوى شخصية المتعلم، بيد أن غياب التنسيق والتنظيم في توزيعها بالتدرج، قد أضاع على المتعلم فرصة التأثر بها، فضلًا عن غياب الفلسفة التي تحدد التوجهات القيمية المطلوبة. وإذا نحن أجرينا مسحًا للمناهج الدراسية التي تم تدريسها في وقت مضى، ومقارنتها بالمناهج التي تدرس في الوقت الحاضر، سنجد أن ثمة فجوة بين المناهج القديمة والمناهج المعاصرة، بل إن هذه الفجوة آخذة بالازدياد بدليل أن المناهج القديمة كانت تؤكد جملة من التوجهات القيمية الإيجابية، في حين أن المناهج المعاصرة تؤكد توجهات قيمية تكاد تكون سلبية. وحقيقة الأمر، إن هذه الفجوة التي بدأنا نتلمسها على صعيد المناهج الدراسية، ليس بسبب التطور الحضاري الذي أخذ يشيع في أرجاء مختلفة من العالم، بل بسبب هيمنة الخطاب السياسي على الخطاب التربوي ومحاولة الأول أن (يؤدلج) الثاني، بهدف توظيفه في عملية التعبئة الشعبية، وبذلك فإن هيمنة الخطاب السياسي ومحاولاته في أن يفرض فلسفته، وكانت السبب الذي جعل الخطاب التربوي أن يتخذ موقفًا سلبيًّا حيال المراحل الزمنية التي مر بها المجتمع، ذلك الموقف الذي اشتمل على الإعلان ضمنًا بإلغاء المراحل الزمنية، ثم الإعلان صراحة عن بدء مرحلة زمنية جديدة يتم فيها تأكيد الفلسفة السائدة، ولقد تم في هذا الإعلان، الإشارة إلى أن ما قبل المرحلة الجديدة لم يكن فلسفة، إنما هي محض وهم وتضليل وتخريب، وحتى لا نطيل، نجد من الضروري هنا، أن نستعرض محتوى بعض المقررات الدراسية في عدد من الأقطار العربية، ثم بعد ذلك

إجراء مقارنة بينها فيما هو مطلوب تضمينه.

ففي العراق، حلل محتوى كتاب المطالعة العربية للمرحلة الابتدائية للعام الدراسي (١٩٥٧– ١٩٥٨) لمعرفة التوجهات القيمية السائدة، آنذاك، ولقد اعتمد في هذا الصدد على تصنيف كلاكهون، الذي يشتمل على التوجهات القيمية الآتية:

١- علاقة الإنسان بالطبيعة.

٢- علاقة الإنسان بالإنسان.

٣- البعد الزمني المفضل.

٤- نمط الشخصية المفضل.

لقد وجدت الدراسة، أن كتب المطالعة، كانت تؤكد أن الإنسان خاضع للطبيعة فيما يخص مجال علاقة الإنسان بالطبيعة، وفي مجال البعد الزمني المفضل، ظهر أن المستقبل هو أكثر الأصناف تواترًا، وفيما يتعلق بنمط الشخصية المفضل، تبين أن الفعالية (الإنجاز) كانت أكثر تواترًا من الأصناف الأخرى.

أما بالنسبة للعلاقة بين الإنسان والإنسان، فقد وجد أن العلاقة التنافسية كانت أكثر الأصناف تواترًا[٦]. وفي سبعينات القرن العشرين، أجريت دراسة أخرى، حلل فيها محتوى كتب المطالعة العربية للمرحلة الابتدائية أيضًا للعام الدراسي (٧١ – ١٩٧٢)، باعتماد تصنيف كلاكهون نفسه، ولقد توصلت الدراسة إلى أن كتب المطالعة العربية لهذه المرحلة، كانت تؤكد أن صنف السيطرة على الطبيعة، كان أكثر تواترًا من الأصناف الأخرى، فيما يتعلق بمجال علاقة الإنسان بالطبيعة، وفيما يخص البعد الزمني المفضل، تبين أن المستقبل يعد أكثر الأصناف القيمية تفضيلًا.

وأما بالنسبة لنمط الشخصية المفضل، ظهر أن الفعالية كانت أكثر

الأصناف تواترًا. وأخيرًا، ظهر أن العلاقة الحادثة بين الإنسان والإنسان كانت علاقة تعاونية(٧).

وإذا نحن تابعنا التغيير في التوجهات القيمية، وجدنا أن الإنسان تحول من خاضع للطبيعة في مقررات الخمسينيات إلى مسيطر عليها في مقررات السبعينات، كذلك تحولت علاقة الإنسان بالإنسان من كونها تنافسية في مقررات الخمسينيات إلى كونها تعاونية في مقررات السبعينيات، وهذا يعني جملة، أن غياب التنظيم وعدم الدقة في انتقاء التوجهات القيمية التي كانت سائدة في الخمسينيات، قد تم تجاوزها في مقررات السبعينيات بدليل أن التوجهات القيمية الواردة في هذه المقررات، كانت تعبر عن الاتجاه القيمي المرغوب فيه، وهذا ما ينسجم مع أهداف الخطاب التربوي أثناء إعداد هذه المقررات. بيد أن الاتساق في طرح هذا النوع من التوجهات سرعان ما عاد إلى التناقض، إذ لم يلتزم بالتوجهات القيمية التي تنسجم مع أهداف الخطاب التربوي. وإذا نحن أجرينا مسحًا لنماذج البشر التي كانت سائدة في هذه المقررات، وجدنا أن النموذج الإنساني، كان يشيع في كل المقررات في المرحلة الابتدائية، عدا كتاب المطالعة العربية للصف الرابع، الذي شاع فيه نموذج الإنسان المواطن، كذلك وجد أن نموذج الإنسان المواطن كان ضعيفًا في الذيوع والانتشار في كتاب الصف الثاني والثالث. كما وجد أن نموذج الإنسان الكادح ونموذج الإنسان المتدين، كان ضعيفًا، في حين يظهر نموذج إنسان السوق قويًا في كتاب الصف الثاني ثم يأخذ بالتضاؤل في المراحل الدراسية اللاحقة(٨). وهذا يشير إلى غياب التوازن في طرح نماذج البشر، بالرغم من أن التصنيف القيمي الذي اعتمد عليه لم يكن شاملًا، فقد تضمن بعض النماذج من البشر وأهمل النماذج الأخرى. نقول: إنه بالرغم من قصور التصنيف - الذي اعتمد عليه- فإن غياب التوازن في طرح نماذج البشر، كان واضحًا وجليًا. فقد كانت المقررات تميل إلى طرح نموذج معين من البشر وتهمل

النماذج الأخرى في بعض الصفوف الدراسية ثم تعود، فتجعل الغلبة لنموذج آخر في صفوف أخرى، وهكذا.

إن غياب الفلسفة التي يعتمد عليها في طرح نماذج البشر المطلوب تضمينها في المقررات الدراسية، كان السبب وراء غياب التوازن هذا.

وفي السودان، حلل محتوى مقررات المطالعة العربية للمرحة الابتدائية وقد أظهرت نتائج التحليل، أن ثمة قيمًا تدعو إلى: التكافل والظرف، وتحمل المسئولية والعدالة والصدق والانتقام والأمانة والشك بالآخرين وعدم الثقة والكرم والتواضع ونقيض التكافل[٩].

إن من البين الواضح، أن ثمة تناقضًا في بث الأنساق القيمية، فهي تدعو إلى التكافل ثم تأتي بنقيضه، وهذا معناه، أن هذه المقررات توحي للتلميذ أن يكون متكافلًا مرة وغير متكافل مرة أخرى، أو أن يكون متكافلًا في بعض المواقف، وفي مواقف أخرى ينبغي أن يحجم عن التكافل، ولعل الأمر نفسه ينطبق على الأنساق القيمية الأخر، فهي تدعو -أي المقررات- إلى أن يكون التلميذ ظريفًا ومتحملًا للمسئولية وعادلًا وصادقًا وأمينًا وكريمًا ومتواضعًا تارة ومنتقمًا ولا يثق بالآخرين تارة أخرى.

واضح، أن ثمة تناقضًا قيميًّا اشتملت عليه المقررات الدراسية، والسبب يعود إلى غياب التخطيط، وعدم الأخذ بآراء الخبراء في الميدان التربوي والنفسي.

أما في مصر، فقد حلل محتوى كتب المطالعة العربية للمرحلة الابتدائية على أن عملية التحليل هذه، قسمت إلى مرحلتين:

فأما المرحلة الأولى: فهي مرحلة ما قبل الثورة المصرية ١٩٥٢، إذ

أخضعت كتب تلك المرحلة إلى التحليل.

وأما المرحلة الثانية: فهي مرحلة ما بعد الثورة، إذ أخضعت الكتب المقررة للعام الدراسي (٧١ – ١٩٧٢) إلى التحليل أيضًا. وقد ظهرت نتائج التحليل، إن مرحلة ما قبل الثورة ركزت على الأنساق القيمية الآتية: المساعدة، والعناية، والموت، والعجز والمرض، الذكاء، واليقظة، والطعام، والشراب، العمل، والكدح، والشجاعة، والجرأة، والجسارة، الألعاب، الرياضية، والترفيه، والطاعة، والإذعان للسلطة، القساوة، والتعذيب، والخسة، الاعتراف بالبلاد والشعوب الأخرى.

أما النتائج المتعلقة بمرحلة ما بعد الثورة، فقد ضمت القيم التسع الأولى من القيم التي شاعت في مقررات ما قبل الثورة، مضافًا إليه قيمتي (الموافقة،التنازل، والقبول)[١٠].

واضح، أن القيم التي بثت في مقررات ما قبل الثورة، كانت تركز على ستة أبعاد:

١ – الخصائص التي تتصف بها الذات.
٢ – العمل.
٣ – الإذعان للسلطة.
٤ – التسلية والترفيه.
٥ – العدوان.
٦ – الاعتراف بالشعوب الأخرى.

والحقيقة، أن مرحلة ما بعد الثورة، كادت تركز على الأبعاد نفسها باستثناء البعد الخامس والبعد السادس، إذ حل محل هذين البعدين بعد الانصياع للمواقف الحياتية كافة، بما فيها التنازل عن الحق الشخصي

والاجتماعي، وهذا يشير إلى، أن التغيرات الاجتماعية التي مر بها المجتمع لم تحدث تغييرًا يذكر؛ بدليل أن المقررات الدراسية قد حافظت على النسق القيمي الذي كان سائدًا في مرحلة ما قبل الثورة، مع ملاحظة، أن هناك تعديلات طفيفة طرأت عليها.

وما إن دخل المجتمع عقد الثمانينات من القرن العشرين حتى بدأت هذه المقررات بتدعيم التغييرات الاقتصادية التي شهدها المجتمع، ولعل من أهم هذه التغيرات: الهجرة خارج الوطن والانفتاح الاقتصادي.

فلقد أخذت المقررات الدراسية في الحديث عنها، من باب الضرورة، إذ أبرزت النتائج الإيجابية لمثل هذه التغييرات، في حين أحجمت عن ذكر الآثار السلبية المترتبة عليها[١١]، وهذا إن دل على شيء، إنما يدل على أن الخطاب التربوي لم يزل بعد، يخضع للخطاب السياسي ولعمليات الأدلجة.

ولعل المواد الاجتماعية (التاريخ والجغرافية والتربية الوطنية) لم تستطع هي الأخرى التخلص من هيمنة الخطاب السياسي. فعلى سبيل المثال، عن الحديث عن هوية مصر، ركزت هذه المواد بدرجة كبيرة على الأصل الفرعوني لمصر، وأما الانتماء العربي، فقد حظي بنسبة قليلة. ففي إحدى الدراسات التي أجرت تحليلًا لمحتوى مقررات المواد الاجتماعية للمرحلة الابتدائية، تبين أن هذه المواد، أكدت الأصل الفرعوني لمصر بنسبة (٥٤٪)، ثم جاء بعد ذلك الانتماء للوطن المصري، إذ بلغت نسبته (٣٠٪) وأخيرًا جاء تأكيد الانتماء العربي لمصر بنسبة قليلة بلغت (١٦٪)[١٢] وعند الإشارة إلى السلطة، كان الخطاب التربوي يعرِّف الحكومة من خلال الخدمات المقدمة إلى المواطنين[١٣].

ولعل هذا الخطاب، يوحي للأطفال والناشئة، أن الحكومة تتجسد في الهيئة التي تكون عليها الخدمات، وكذلك الحال، مع الخدمات، إذ تتجسد في

الهيئة التي تكون عليها الحكومة، وهو أمر يكاد يشيع في معظم الأقطار العربية.

وبصدد تضمين القيم الاجتماعية في مقررات هذه المواد، فلقد وجد أنها لم تحظ بنصيب وافر، ولا سيما أن الأهداف التربوية المعدة لهذه المواد الدراسية، هو بث جملة من القيم الاجتماعية للمتعلمين، بقصد إشاعة الأمن الاجتماعي، ولعل من المفيد الإشارة هنا، إلى أن إحدى الدراسات عمدت إلى تحليل محتوى المواد الاجتماعية المخصصة لتلاميذ المرحلة الابتدائية للفترة الواقعة بين ثورة ١٩٥٢ و١٩٩٢. ولقد تبين من نتائج الدراسة، قلة عدد الجمل الدالة على القيم الاجتماعية وغياب التوازن في الأصناف الدالة على القيم الاجتماعية[١٤].

وفي قطر، أجري تحليل لمحتوى المطالعة العربية المقررة للمراحل الدراسية كافة، ولقد تبين من نتائج التحليل، قلة عدد الجمل الدالة على قيم العمل. كما تبين أن النسق المرتبط بالتفضيل المهني، لم يعد يتناسب مع التطورات التي تحدث في ميدان الاقتصاد. كذلك وجد، أن الأنساق القيمية التي حاول المخططون بثها، لم تسهم في تنمية العمل اليدوي لدى المتعلمين[١٥]، ولعل ذلك يرجع إلى عدد من الأسباب، ومن بينها: أن معدي هذه المواد ينطلقون من التوجهات الأيديولوجية التي يؤمنون بها، تلك التوجهات التي تنبذ فكرة العمل، ولا سيما العمل اليدوي، كذلك يعود الأمر إلى غياب الخطط التي تسهم في تنمية الاتجاهات الإيجابية نحو العمل، فضلًا عن إشاعة الاتكال على الغير (الأجنبي) في تدبير شئون المجتمع.

وتأسيسًا على ما سبق، تغدو المناهج الدراسية في مدارسنا العربية، مضللة ومزيفة لوعي الأطفال والناشئة، ولما كانت كذلك نجد من الصعوبة بمكان أن يحدث الخطاب التربوي أثرًا يذكر في سلوك المتعلمين.

وما دمنا بصدد الحديث عن التوجهات القيمية السائدة في المقررات الدراسية، نستعرض هنا، الدراسة التي استهدفت الكشف عن التوجهات القيمية السائدة في المقررات الدراسية في العراق في حقبة التسعينيات على وجه التحديد.

لنبدأ أولًا بأهداف الدراسة ثم إجراءاتها لننتهي بعد ذلك بالنتائج التي أسفرت عنها.

أهداف البحث:

يستهدف البحث الحالي الإجابة عن السؤالين الآتيين:

١- ما التوجهات القيمية السائدة في كتب القراءة العربية للمرحلة الابتدائية؟

٢- ما التوجهات القيمية السائدة في كتاب القراءة العربية لكل صف دراسي؟

طريقة البحث

المجتمع الأصلي

تعد كتب القراءة العربية للمرحلة الابتدائية بصفوفها كافة مجتمعًا أصليًّا للبحث الحالي، ولقد وجد الباحث أن هذا المجتمع من السهولة بمكان الإلمام بالبيانات المتعلقة به، ولا سيما أن الصفحات الخاضعة للتحليل في كل كتاب يمكن السيطرة عليها وإنجازها في الوقت المحدد، لذا فإن الباحث ليس بحاجة إلى انتقاء عينة من الصفحات من كل كتاب وعلى ذلك أخضعت جميع الكتب للتحليل، وقد استبعد من التحليل، كتاب الصف الأول الابتدائي؛ وذلك بسبب تركيز الكتاب على تعليم الحروف الهجائية والإملاء أكثر من تركيزه على بث أنساق قيمية من أصناف معينة. وبذلك بلغ عدد الموضوعات

الخاضعة للتحليل (١١٥) موضوعًا موزعة على (٣٨٨) صفحة.

ومما له دلالة في هذا الصدد، أن الكتب التي أخضعت للتحليل كانت مقررة للتدريس للعام الدراسي (١٩٩٧ – ١٩٩٨).

الأداة

تعد الأداة هنا، النصوص الخاضعة للتحليل في كتب القراءة العربية ولغرض معالجة هذه النصوص، فقد استخدمت طريقة تحليل المحتوى content analysis بوصفها الطريقة المناسبة لمعالجة مثل هذه البيانات، وبذلك تصبح المادة المكتوبة الأداة التي تستخدم في تحليل النتائج. ولقد استبعد من عملية التحليل، النصوص الشعرية والآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة؛ لكونها تنطوي على توجهات قيمية إيجابية، كذلك استبعد من التحليل معاني الكلمات، بسبب أن المؤلف يرمي من ورائها توضيح دلالات بعض الألفاظ، فضلًا عن زيادة المحصول اللفظي للمتعلم. لذا، فإن التحليل اقتصر على المقالات والقصص، وفي هذا السياق، نستعرض خطوات طريقة تحليل المحتوى وعملية توظيفها في البحث الحالي.

١ – اختيار التصنيف القيمي المناسب للبيانات

لقد اعتمد على تصنيف التوجيهات القيمية لكلاكهون، بوصفه تصنيفًا مناسبًا لبيانات البحث الحالي، وأن ثمة مسوغات جعلت الباحث يعتمد على هذا التصنيف دون غيره، ولعل من أبرزها:

أ– أن تصنيف كلاكهون يعد تصنيفًا ملائمًا للبيانات التي تعتمد على طريقة تحليل المحتوى في استخلاص النتائج.

ب– أن هذا التصنيف يشتمل على خمسة توجهات قيمية رئيسية، وهذه التوجهات تنقسم بدورها إلى ثلاثة أصناف، وشيوع أحد الأصناف

الثلاثة يحدد بطبيعة الحال، التوجه القيمي للمجتمع، فعلى سبيل المثال، يعد البعد الزمني المفضل أحد التوجهات القيمية الرئيسية في التصنيف، وهذا البعد يشتمل على ثلاثة أصناف تنحصر في الماضي والحاضر والمستقبل. فإذا كانت نتائج التحليل تشير إلى أن الماضي أكثر تكرارًا من الأبعاد الزمنية الأخرى، فهذا يعني أن المجتمع لا يعيش الحاضر، وليس لديه أية توجهات مستقبلية، وعلى ذلك فهو غير قادر على مجاراة الحضارة العالمية، مما يعرضه إلى مزيد من المشكلات. وهكذا الأمر بالنسبة للتوجهات القيمية الأخرى. إذ إن شيوع أحد الأصناف ضمن التوجه القيمي الواحد، يحدد على وجه الدقة، التوجه القيمي السائد.

جـ- ولعل من المسوغات التي دعت الباحث إلى انتقاء تصنيف كلاكهون أن ثمة عددًا من الدراسات استخدمت هذا التصنيف في عملية تحليل محتوى الكتب الدراسية. وتأتي هذه الدراسة مكملة للدراسات التي سبقتها في هذا الصدد، وذلك للإحاطة بالتغيرات الاجتماعية التي حدثت في عقد التسعينيات التي انعكست بدورها في المقررات الدراسة الموجهة إلى الناشئة.

تلك هي المسوغات التي جعلت الباحث ينتقي تصنيف كلاكهون دون غيره من التصنيفات القيمية الأخرى، وبهدف معرفة طبيعة هذا التصنيف نستعرض في أدناه التفاصيل التي يشتمل عليها.

أولًا: علاقة الإنسان بالطبيعة:

أ- **الإنسان خاضع للطبيعة:** وهذا الصنف يؤكد الفكرة التي مفادها أن الإنسان يكيف نفسه للطبيعة، بدلًا من أن يكيف الطبيعة لحاجاته.

ب- الإنسان منسجم مع الطبيعة: هذا الصنف يؤكد الفكرة القائلة أن الإنسان جزء من الطبيعة، وهذا معناه، أنه منسجم ومتجانس معها.

جـ- الإنسان مسيطر على الطبيعة: هذا الصنف على النقيض من الصنف الأول تمامًا، إذ يؤكد أن الإنسان يكيف الطبيعة لحاجاته.

ثانيًا: البعد الزمني المفضل

أ- الماضي: ويعني هذا الصنف الانشغال بقضايا أو بأحداث حدثت في الماضي وتفضيل تقاليد الماضي والأنماط السلوكية المرتبطة بها.

ب- الحاضر: ويشتمل هذا الصنف على تفضيل الحاضر والاهتمام به.

جـ- المستقبل: وهذا الصنف ينحصر في تفضيل المستقبل والتخطيط له.

ثالثًا: نمط الشخصية المفضلة

أ- الوجود: ويمثل هذا الصنف الإنسان الذي لا يتمكن من التحكم برغباته أو بمعنى آخر، يمثل الإنسان الذي لا يستطيع ضبط نفسه.

ب- الوجود نحو الصيرورة: وهذا الصنف على النقيض من الصنف الأول، فإذا كان الإنسان في الصنف الأول لا يتحكم برغباته، فإنه في الصنف الثاني تكون له الفترة على التحكم برغباته والسيطرة على نفسه أو مقاومة الإغراء في المواقف التي تستدعي إظهار مثل هذه المقاومة.

جـ- الفعالية: ويمثل هذا الصنف الإنسان في حالة الإنجاز.

رابعًا: العلاقات المفضلة بين الإنسان والإنسان

أ- علاقة أسرية: ويمثل هذا الصنف، التفاعل الحميمي الحادث بين أفراد الأسرة الواحدة.

ب- علاقة تعاونية: وهذا الصنف يؤكد التعاون بين الأفراد ونبذ التنافس.

جـ- علاقة تنافسية: ويشتمل هذا الصنف على التنافس الحادث بين الأفراد وكذلك الاستقلالية والاعتماد على النفس.

خامسًا: طبيعة الإنسان

أ- خيِّر: وهذا الصنف يؤكد الخير والسلام والوئام والأخوة ونبذ العدوان.

ب- شرير: ويؤكد هذا الصنف العدوان والشر ونبذ السلام.

جـ- محايد: وهذا الصنف يؤكد، أن الإنسان يكون خيّرًا في مواقف معينة وشريرًا في مواقف أخرى.

٢- تحديد الوحدة المناسبة للتحليل

من المفيد الإشارة هنا إلى أن الفكرة Theme قد اعتمدت على وحدة[١٦] في تحليل محتوى الكتب الدراسية، والفكرة قد تكون صريحة أو ضمنية، فالفكرة الصريحة عادة ما ترد بشكل صريح أو مباشر، في حين أن الفكرة الضمنية، لا يعبر عنها صراحة أثناء السياق، بل هي تشتق من الأحداث المتعاقبة، وهنا يعمد المؤلف إلى الاستعانة بالتلميح بدلًا من التصريح والإشارة غير المباشرة، بدلًا من الإشارة الواضحة والصريحة في بث الفكرة المطلوبة.

٣- تحديد الوحدة المناسبة للتعداد

لقد اعتمد على التكرار في الكشف عن الأصناف القيمية، وذلك بإحصاء تكرارات كل صنف ليتسنى للباحث تحديد الأصناف القيمية السائدة.

٤- الخطوات المتبعة في تحليل النصوص

إن تحليل النصوص (مقالة، قصة) جرى طبقًا للخطوات الآتية:

أ- تنظيم استمارة تحتوي على نوع الفكرة (صريحة أو ضمنية) ونوع الصنف الدال على التوجه القيمي.

ب- يلجأ الباحث في العادة قبل تحليل النص إلى قراءته بالكامل، لغرض فهمه وما يهدف إليه.

جـ- وبعد ذلك يعمد الباحث إلى إجراء قراءة ثانية على النص، بهدف تحديد الفكرة الدالة على القيمة وفقًا لتصنيف كلاكهون.

د- وأخيرًا، يعطي تكرارًا واحدًا عند ظهور الفكرة الدالة على القيمة، وبذلك فإن مجموع التكرارات الدالة على القيمة يمثل الصنف السائد ضمن التوجه القيمي الواحد.

٥- اتباع قواعد معينة عند تحليل النصوص

من الضروري عند تحليل النصوص أن تتبع بعض القواعد التي يتم من خلالها تحديد نوع الأفكار الواردة وتصنيفها طبقًا للتصنيف المعتمد، كما أن اتباع هذه القواعد تساعد الباحث على توخي الدقة أثناء عملية التحليل.

لقد استخلص الباحث مجموعة من القواعد يمكن إيجازها على النحو الآتي:

أ- في حالة ظهور فكرة تشتمل على أكثر من قيمة، فإن الباحث يعمد إلى الأخذ بالقيمة التي يتم التركيز عليها أكثر من غيرها، وذلك من خلال استنتاج مؤلف الكتاب عند طرحه للفكرة الذي يأتي في نهاية الموضوع أو عند اكتمال الفكرة، وربما يستدل من عنوان الموضوع على القيمة التي يراد التركيز عليها، أو من تكرار بعض الألفاظ والجمل.

ب- إن الفكرة الرئيسة التي تشتمل على مجموعة من الأفكار الفرعية، تعامل كل فكرة فرعية منها على أنها وحدة مستقلة في التحليل.

جـ- في حال احتواء الجملة الواحدة على فكرتين أو أكثر، وكانت إحداهما سببًا والأخرى نتيجة، أو إحداهما وسيلة والأخرى غاية، فالحكم هنا، أن تعامل كل منهما معاملة الفكرة الواحدة.

د- كذلك في حال احتواء الجمل على معطوف، فإن الفكرة تجزأ طبقًا لتكرار العطف إلى أكثر من جملة، إذ تعد كل جملة فكرة مستقلة، ثم يحدد بعد ذلك الصنف القيمي الدال عليها.

هـ- أحيانًا تواجه الباحث أثناء عملية التحليل، أن الفكرة المستحصلة لا تشير

إلى صنف قيمي واضح وذلك لارتباط الفكرة بالأفكار التي قبلها أو بالأفكار التي بعدها، وهنا يعمد الباحث إلى إعادة قراءة الفكرة السابقة أو الفكرة اللاحقة لتحديد القيمة.

و- ربما لا يظهر في الصفحة الواحدة أي صنف قيمي، وذلك لعدم اكتمال الفكرة، وهنا يلجأ الباحث إلى الاستمرار في القراءة إلى الصفة التي تليها حتى تكتمل الفكرة، لغرض استخلاص الصنف القيمي الدال عليها.

ز- يلجأ الباحث إلى علامات التنقيط عندما تكون ثمة صعوبة في تحديد الفكرة.

٦- استخراج الخصائص السايكومترية للنصوص المحللة

نعني بالخصائص السايكومترية psychometric للنصوص الخاضعة لتحليل المحتوى: الصدق والثبات، ولضمان صدق التحليل ودقته، ومن ثم ضمان ثباته، فإن الأمر يقتضي مراعاة المتغيرات التي تؤثر على دقة استخراج هذه الخصائص، ولعل من أهمها:

أ- خبرة الباحث ومهارته في تحليل النصوص.

ب- وضوح الأصناف التي يشتمل عليها التصنيف المستخدم في تحليل النصوص.

جـ- نوع وحدة التحليل.

د- وضوح قواعد التحليل.

هـ- نوع البيانات الخاضعة للتحليل[١٧].

في هذا السياق نشير إلى أن هذه المتغيرات روعيت في البحث الحالي، وذلك باتباع الإجراءات الآتية:

أ- فيما يتعلق بالمتغير الأول، فإن الباحث زود نفسه بمعلومات وافية عن أسلوب تحليل المحتوى، ثم بعد ذلك أجرى تحليلًا أوليًّا لبعض النصوص

قبل البدء بعملية التحليل النهائية.

ب- وبالنسبة للمتغير الثاني، تمكن الباحث من السيطرة عليه من خلال وضوح الأصناف التي اشتمل عليها التصنيف الذي استخدم في البحث الحالي، ومما زاد من وضوح هذه الأصناف أن الباحث اعتمد على قائمة التصنيف والتفاصيل المتعلقة بها من الدراسات التي اعتمدت عليه فى تحليل بياناتها.

جـ- وفيما يخص المتغير الثالث، وهو نوع وحدة التحليل، فإن أهداف البحث هي التي تحدد وحدة التحليل، وبما أن البحث الحالي يستهدف معرفة نوع التوجهات القيمية السائدة في المقررات الدراسية للمرحلة الابتدائية فإن وحدة التحليل المعتمدة ستكون الفكرة بنوعيها الصريحة والضمنية.

د- والمتغير الرابع، هو وضوح قواعد التحليل، وقد تمكن الباحث من السيطرة عليه، من خلال الإلمام بقواعد التحليل التي اعتمدت عليها الدراسات السابقة، ولا سيما الدراسات التي أجرت تحليلًا لمحتوى الكتب الدراسية.

هـ- وأخيرًا، فإن البيانات الخاضعة للتحليل، هي عبارة عن نصوص تشتمل على مقالات وقصص، أي: إنها بيانات مكتوبة، وهذا يسهل بطبيعة الحال، عملية التعامل معها، ومن ثم يسهل عملية إخضاعها للتحليل.

لقد استخرجت الخصائص السيكومترية لعملية تحليل النصوص، عن طريق انتقاء عينة عشوائية من موضوعات الكتب الدراسية كافة، إذ بلغت (٢٠٪) من موضوعات كل كتاب. فقد استخرج صدق التحليل، عن طريق الاتساق بين الباحث ومحللين آخرين في تسمية الفكرة وتصنيفها، فإن ثبت الاتساق في تسمية الفكرة وتصنيفها، فإن ذلك يعني، أن التحليل يتمتع بالصدق والعكس صحيح، إن ثبت عدم الاتساق في التسمية والتصنيف، فهذا يعني أن التحليل غير دقيق ولا يتمتع بالصدق المطلوب.

ولاستخراج الصدق، فقد درب الباحث اثنين من طلبة المرحلة المنتهية في قسم علم النفس على عملية التحليل المحتوى، ولقد أجرى هذان الطالبان تحليلًا لمحتوى العينة العشوائية المستخرجة، بعد تزويدهما بالتصنيف المستخدم في الدراسة وأسلوب التعامل معه، كما أجرى الباحث تحليلًا لمحتوى العينة نفسها. وقد استخدمت معادلة سكوت[١٨] في استخراج صدق التحليل.

فلقد بلغ معامل الاتفاق بين الباحث والمحلل الأول على تسمية الفكرة (٠.٧١)، بينما بلغ معامل الاتفاق بين الباحث والمحلل نفسه على تصنيف الفكرة (٠.٧٨).

كذلك بلغ معامل الاتفاق بين الباحث والمحلل الثاني على تسمية الفكرة (٠.٧٦)، في حين بلغ معامل الاتفاق بين الباحث والمحلل نفسه على تصنيف الفكرة (٠.٦٧) وهذا يشير حقيقة إلى أن النصوص الخاضعة للتحليل تتمتع بدرجة مقبولة من الصدق.

أما ثبات التحليل، فقد استخرج عن طريق الاتساق عبر الزمن، ذلك بإجراء الباحث تحليلين لمحتوى العينة المستخرجة يفصل بينهما (٦٠) يومًا، وقد بلغ معامل الاتفاق باستخدام معادلة سكوت (٠.٧٩) على تسمية الفكرة، بينما بلغ معامل الاتفاق على تصنيف الفكرة (٠.٨٤). وبذلك فإن النصوص الخاضعة للتحليل تتمتع بالثبات المقبول، والحقيقة أن ذلك يسوغ الثقة بصحة التحليل وموضوعيته.

عرض النتائج ومناقشتها

لقد شمل التحليل (١١٥) موضوعًا موزعة على (٣٣٨) صفحة، وقد بلغ عدد الأفكار التي شاعت في هذه الكتب (١٧٧٥) فكرة بين صريحة وضمنية، إذ بلغ عدد الأفكار الصريحة (٩٩٧) فكرة وبنسبة بلغت (٥٧.٠٣٪) فيما بلغ

عدد الأفكار الضمنية (٣٨٧) فكرة وبنسبة بلغت (٤٢.٩٧٪). وفيما يلي عرض للنتائج التي توصل إليها البحث الحالي.

أولًا: النتائج المتعلقة بتحليل محتوى كتب القراءة العربية على مستوى المرحلة الابتدائية:

١- علاقة الإنسان بالطبيعة

تشير نتائج تحليل محتوى الكتب، أن صنف الانسجام من الطبيعة، كان أكثر تكرارًا من الأصناف الأخرى، إذ حصل هذا الصنف على نسبة (٤٠.٨٧٪). ثم جاء بعده بالترتيب الثاني صنف السيطرة على الطبيعة ثم حصل صنف الخضوع للطبيعة على الترتيب الثالث والجدول (١) يوضح ذلك.

الجدول (١)

يوضح النسب المئوية لعلاقة الإنسان بالطبيعة

في كتب القراءة العربية للمرحلة الابتدائية

الصف	علاقة الإنسان بالطبيعة			المجموع
	الإنسان مسيطر على الطبيعة	الإنسان منسجم مع الطبيعة	الإنسان خاضع للطبيعة	
الثاني	٤٧.٣٨	٣٩.١٣	١٣.٠٤	١٠٠٪
الثالث	٣٩.٤٢	٣٦.٨٨	٢٣.٧	١٠٠٪
الرابع	١٦.٦٧	٨٣.٣٣	صفر	١٠٠٪
الخامس	٦٥	٥	٣٠	١٠٠٪
السادس	١٣.٣٣	٤٠	٤٦.٦٧	١٠٠٪
كل الكتب	٣٦.٤٥	٤٠.٨٧	٢٢.٦٨	١٠٠٪

٢- البعد الزمني المفضل

تشير النتائج، أن الماضي كان أكثر الأصناف تكرارًا إذ حصل على نسبة كبيرة بلغت (٥٥.٩٥٪)، ثم جاء الحاضر بالترتيب الثاني إذ حصل على نسبة بلغت (٢٣.٩٣٪)، في حين حصل المستقبل على الترتيب الثالث وبنسبة (٢٠.١١٪) وهي في حقيقة الأمر، تكاد تكون هذه النسبة متقاربة مع النسبة التي حصل عليها الحاضر، والجدول (٢) يوضح ذلك.

الجدول (٢)

يوضح النسب المئوية للبعد الزمني المفضل

في كتب القراءة العربية للمرحلة الابتدائية

الصف	البعد الزمني المفضل			المجموع
	الماضي	الحاضر	المستقبل	
الثاني	٤٤	٢٠	٣٦	١٠٠٪
الثالث	٤١.٨١	٢٥.٧٨	٣٢.٤١	١٠٠٪
الرابع	٥٠	٢٨.٩٥	٢١.٠٥	١٠٠٪
الخامس	٦٨.٩٦	٣١.٠٤	صفر	١٠٠٪
السادس	٧٥	١٣.٨٩	١١.١١	١٠٠٪
كل الكتب	٥٥.٩٥	٢٣.٩٣	٢٠.١١	٩٩.٩٩٪

٣- نمط الشخصية المفضلة

لقد ظهر من نتائج تحليل المحتوى، إن صنف الفاعلية كان أكثر تكرارًا من الأصناف الأخرى، إذا حصل على نسبة كبيرة بلغت (٦٩.٦٥٪)، ثم جاء بعده صنف الوجود نحو الصيرورة، إذ حصل على الترتيب الثاني فيما حصل صنف الوجود على الترتيب الثالث، وبنسبة تكاد تكون ضئيلة مقارنة بالنسب التي حصلت عليها الأصناف الأخرى والجدول (٣) يوضح ذلك.

الجدول (٣)
يوضح النسب المئوية لنمط الشخصية المفضلة
في كتب القراءة العربية للمرحلة الابتدائية

الصف	نمط الشخصية المفضلة			المجموع
	الوجود	الوجود نحو الصيرورة	الفعالية	
الثاني	١٠.٣٤	٢٠.٦٩	٦٨.٩٧	١٠٠٪
الثالث	٢٠.٢٤	٤٠.٥٣	٣٩.٢٣	١٠٠٪
الرابع	٠.٧٦	١٧.٤٢	٨١.٨٢	١٠٠٪
الخامس	٦.٦٧	٨.٥٧	٨٤.٧٦	١٠٠٪
السادس	١.٤١	٢٥.١٣	٧٣.٤٦	١٠٠٪
كل الكتب	٧.٨٨	٢٢.٤٧	٦٩.٦٥	١٠٠٪

٤ - العلاقة المفضلة بين الإنسان والإنسان:

تشير نتائج التحليل، إن العلاقة التعاونية كانت أكثر الأصناف تكرارًا، إذ حصلت على نسبة كبيرة بلغت (٥٦.٦٥٪)، ثم جاءت العلاقة الأسرية بنسبة أقل؛ إذ بلغت (٣٣.٦٢٪)، فيما حصلت العلاقة التنافسية على نسبة قليلة، إذ بلغت (٩.٧٣٪) والجدول (٤) يوضح ذلك.

الجدول (٤)

يوضح النسب المئوية للعلاقة المفضلة بين الإنسان والإنسان

في كتب القراءة العربية للمرحلة الابتدائية

الصف	العلاقة المفضلة بين الإنسان والإنسان			المجموع
	علاقة أسرية	علاقة تعاونية	علاقة تنافسية	
الثاني	٤٨.٨٩	٤٠	١١.١١	١٠٠٪
الثالث	٤٦	٥٠	٤	١٠٠٪
الرابع	٤٨.٧٢	٤٣.٥٩	٧.٦٩	١٠٠٪
الخامس	١٥.٦٢	٧١.٨٨	١٢.٥	١٠٠٪
السادس	٨.٨٩	٧٧.٧٨	١٣.٣٣	١٠٠٪
كل الكتب	٣٣.٦٢	٥٦.٦٥	٩.٧٣	١٠٠٪

٥- طبيعة الإنسان

تشير النتائج، أن الإنسان الخيِّر كان أكثر الأصناف تكرارًا، إذ حصل على نسبة كبيرة بلغت (٦٥.٤٦٪). وحصل صنف الإنسان الشرير على تكرارات أقل، بلغت نسبتها (٣٠.١٢٪)، في حين حظي صنف الإنسان المحايد على نسبة تكاد تكون ضئيلة، إذ بلغت (٤.٤٢٪)، والجدول (٥) يوضح ذلك.

الجدول (٥)

يوضح النسب المئوية لطبيعة الإنسان

في كتب القراءة العربية للمرحلة الابتدائية

الصف	طبيعة الإنسان			المجموع
	خيِّر	شرير	محايد	
الثاني	٧٥	١٧.٨٦	٧.١٤	١٠٠٪
الثالث	٥٩	٣٠	١١	١٠٠٪
الرابع	١٠٠	صفر	صفر	١٠٠٪
الخامس	٥٦.٥٧	٣٩.٤٧	٣.٩٦	١٠٠٪
السادس	٣٦.٧٢	٦٣.٢٨	صفر	١٠٠٪
كل الكتب	٦٥.٤٦	٣٠.١٢	٤.٤٢	١٠٠٪

ثانيًا: النتائج المتعلقة بتحليل محتوى كتاب القراءة العربية للصف الدراسي الواحد:

عند الرجوع إلى الجداول المتضمنة نتائج تحليل محتوى الكتب للصفوف الدراسية كافة، يتبين أن التوجهات القيمية السائدة في هذه الكتب، قد اشتملت على أصناف إيجابية باستثناء البعد الزمني المفضل، إذ احتوى على صنف سلبي، وإذا نحن تفحصنا التوجهات القيمية في كل كتاب دراسي، نجد أن ثمة تناقضًا، وعدم اتساق في بث الأصناف القيمية ، وبهدف معرفة نوعية هذه الأصناف التي بثت في كل كتاب دراسي، نستعرض في أدناه النتائج المتعلقة بتحليل محتوى كل كتاب دراسي.

١ - علاقة الإنسان بالطبيعة

يلاحظ أن الأصناف القيمية المتعلقة بهذا التوجه توزعت على الكتب الدراسية بصورة غير عقلانية. فلقد ظهر الإنسان مسيطرًا على الطبيعة في كتب

الصف الثاني، والثالث، والخامس الابتدائي، في حين يظهر الإنسان منسجمًا مع الطبيعة في كتاب الصف الرابع، ثم خاضعًا للطبيعة في كتاب الصف السادس، وهو الصف الذي تنتهي فيه المرحلة الابتدائية؛ وهذا يشير بطبيعة الحال إلى غياب الاتفاق على الأصناف القيمية المطلوب تضمينها في هذه الكتب، فضلًا عن غياب الترتيب المنطقي في بث هذه الأصناف.

٢- البعد الزمني المفضل

تشير النتائج: أن صنف الماضي كان أكثر تكرارًا في الكتب الدراسية كافة، ولقد حصل هذا الصنف على نسبة كبيرة في كل صف دراسي، فقد بلغت نسبة الأفكار الدالة عليه في الصف الثاني (٤٤٪)، ثم حظي المستقبل بنسبة أقل منه، إذ سجل نسبة بلغت (٣٦٪)، فيما سجل الحاضر نسبة بلغت (٢٠٪).

وفي الصف الثالث قلَّ تأكيد الماضي، إذ بلغت نسبته عن الصف الثاني (٤١.٨١٪) وزاد تأكيد الحاضر، إذ بلغت نسبته عن الصف السابق (٢٥.٧٨٪)، ثم بعد ذلك قلَّ تأكيد المستقبل، إذ بلغت نسبته عن الصف السابق (٣٢.٤١٪)، وهذا يشير إلى أن الاتساق لم يزل بعد غير منتظم في بث الصنف الدال على البعد الزمني المفضل في هذين الكتابين.

وإذا نحن توجهنا نحو الكتب الدراسية الأخرى نجد ثمة تأكيدًا للماضي بدرجة أكبر، فالماضي زاد تأكيده ابتداءً من كتاب الصف الرابع، وحتى كتاب الصف السادس، فلقد بلغت نسبته في كتاب الصف الرابع (٥٠٪)، وفي كتاب الصف الخامس بلغت (٦٨.٩٦٪)، وفي كتاب الصف السادس بلغت نسبته (٧٥٪)،بيد أن تأكيد الحاضر والمستقبل قد أخذ بالتذبذب، وإذ نحن عدنا إلى الجدول (٢)، نجد أن الحاضر قد زاد تأكيده في كتاب الصف الرابع، وفي كتاب الصف الخامس، وغاب تأكيد المستقبل في الصف الخامس إذ بلغ صفرًا، ثم ينخفض تأكيد كل منهما في كتاب الصف السادس بدرجة ملحوظة.

واضح أن الماضي لم يزل بعدًا زمنيًا مفضلًا، وهذا إن دل على شيء، إنما يدل على غياب الاتفاق في تضمين البعد الزمني المفضل، فضلًا عن أن مؤلفي هذه الكتب يعكسون البعد الزمني المفضل لديهم.

٣- نمط الشخصية المفضلة

تُظهر نتائج تحليل المحتوى، أن النمط الفعال كان أكثر تكرارًا في كتب الصفوف الدراسية عدا في كتاب الصف الثالث، إذ كان هناك تأكيد لنمط الوجود نحو الصيرورة يزيد بدرجة طفيفة عن النمط الفعال.

ويُلاحظ أن النمط الفعال قد حصل على نسبة كبيرة، إذ تراوحت بين (٦٨.٩٧٪) في كتاب الصف الثاني إلى (٨٤.٨٦٪) في كتاب الصف الخامس، وإذ نحن تابعنا عملية طرح نمط الشخصية المفضلة في الكتب الدراسية، وجدنا أن هذا النمط من الشخصية غير منتظم من الناحية المنطقية.

ففي كتاب الصف الثاني أُعطي للنمط الفعال تكرارات أعلى، ثم أُعطي لنمط الوجود نحو الصيرورة تكرارات أقل من ذلك، وأخيرًا حصل نمط الوجود على تكرارات تكاد تكون قليلة، بيد أن سوء التخطيط لهذا النمط من الشخصية المطلوب تضمينه، بدا واضحًا في كتب الصف الرابع، والخامس، والسادس.

ففي كتاب الصف الرابع أُعطي لنمط الوجود نحو الصيرورة تكرارات قليلة بلغت نسبتها (١٧.٤٢٪)، وتكاد تنعدم التكرارات التي أُعطيت لنمط الوجود، فقد بلغت نسبة هذه التكرارات أقل من (١٪)، وفي كتاب الصف الخامس انخفضت التكرارات التي أُعطيت لنمط الوجود نحو الصيرورة، وزادت التكرارات التي أُعطيت لنمط الوجود مقارنة بكتاب الصف الرابع، بيد أن نمط الوجود نحو الصيرورة زاد تأكيده في الصف السادس، إذ بلغت

نسبته (٢٥.١٣٪)، في حين انخفض تأكيد نمط الوجود بدرجة كبيرة جدًّا، إذ بلغت نسبته (١.٤١٪).

من ذلك يتضح: أن نمط الشخصية المفضلة لم يتوزع في هذه الكتب بطريقة منطقية، بمعنى أن الأفضلية ينبغي أن تكون للنمط الفعال، وبنسبة تصل إلى (٥٠٪)، ثم بعد ذلك تعطى نسبة (٣٥٪) لنمط الوجود نحو الصيرورة، فيما تُخصَّص النسبة المتبقية لنمط الوجود.

٤ - العلاقة المفضلة بين الإنسان والإنسان

تشير نتائج التحليل: أن العلاقات الأسرية والتعاونية تشيع في كل الكتب الدراسية، في حين أن العلاقة التنافسية حصلت على تكرارات قليلة تراوحت نسبتها بين (٤٪)، و (١٣.٣٣٪)، بيد أن توزيع أصناف هذه العلاقات لم يكن منتظمًا.

ففي بعض الكتب الدراسية تكون الغلبة للأفكار الدالة على العلاقة الأسرية كما هو الحال في كتاب الصف الثاني، وكتاب الصف الرابع، وفي كتب أخرى تكون الغلبة للأفكار الدالة على العلاقة التعاونية، كما هو الحال في كتاب الصف الثالث، وكتاب الصف الخامس، وكتاب الصف السادس.

ومن المفضل تربويًّا: أن تبث الأفكار الدالة على العلاقات الأسرية والتعاونية بصورة متقاربة في كل كتاب، ثم تليها بعد ذلك العلاقة التنافسية بدرجة أقل.

٥ - طبيعة الإنسان

تُظهر نتائج التحليل أن الإنسان يظهر خيِّرًا في كل الكتب، عدا كتاب الصف السادس؛ إذ يظهر شريرًا، وهذا يؤثر بطبيعة الحال، أن ثمة عدم توازن في بث الأصناف القيمية المتعلقة بطبيعة الإنسان، وإذ نحن تابعنا توزيع هذه

الأصناف، وجدنا أن الإنسان الخيِّر يظهر بنسبة كبيرة في كتاب الصف الثاني، ثم تنخفض نسبته في كتاب الصف الثالث، ثم يعود فتكون له الغلبة المطلقة في كتاب الصف الرابع، في حين يخلو الكتاب في هذا الصف من الإشارات أو الأفكار الدالة على الإنسان الشرير، والإنسان المحايد.

وسرعان ما تنخفض هذه النسبة في كتاب الصف الخامس، إذ تبلغ (٥٦.٥٧٪)، ثم يواصل هذا الصنف انخفاضه في كتاب الصف السادس، إذ تبلغ نسبته (٣٦.٧٢٪)، وبذلك تكون الغلبة للإنسان الشرير بنسبة كبيرة تبلغ (٦٣.٢٨٪). ويتضح من ذلك: أن ثمة تذبذبًا في بث الأصناف المتعلقة بطبيعة الإنسان.

المناقشة

سنركز مناقشتنا للنتائج التي توصل إليها البحث الحالي على مسألتين اثنتين، هما:

١ - أن الماضي يعد بعدًا زمنيًّا مفضلًا في الكتب الدراسية.

٢ - أن ثمة خللًا وعدم انتظام في توزيع الأصناف القيمية في الكتب الدراسية.

وبقدر ما يتعلق الأمر بالمسألة الأولى، نقول: إن ثمة أسبابًا جعلت من هذا البعد يشيع في الكتب الدراسية دون غيره من الأبعاد الأخرى، ولعل التوجهات القيمية المتعلقة بمؤلفي هذه الكتب تعد إحدى الأسباب التي جعلت هذا البعد يذيع وينتشر في هذه الكتب.

كما أن الاختصاصات التي يتمتع بها هؤلاء المؤلفون هي أقرب إلى التأريخ، مما يُفضي إلى انتقاء نصوص تؤكد الماضي وتتغنى به، أكثر من انتقاء نصوص تؤكد الحاضر والمستقبل، كذلك يعود السبب إلى غياب الاتفاق على البعد الزمني المطلوب تضمينه في هذه الكتب، مما يترتب على ذلك: أن كل

مؤلف أخذ ينتقي نصوصًا بطريقة تنسجم مع توجهاته الحياتية ونسقه القيمي، والفلسفة التي يتبناها؛ لذا لا غرابة أن نجد نصوص هذه الكتب تعكس توجهات قيمية مختلفة.

أما بصدد المسألة الثانية المتعلقة بوجود خلل وعدم انتظام في توزيع الأصناف القيمية عبر الكتب الدراسية، فيمكن القول: إن السبب يعود إلى تعدد لجان التأليف، وعدم وجود اتفاق مسبق على نوع التوجهات القيمية التي ينبغي تضمينها في كل كتاب دراسي، وربما يعود السبب أيضًا إلى غياب الخبير النفسي الذي يُسهم بدوره في إرشاد لجان التأليف إلى التوجهات القيمية المطلوب تضمينها، تلك التوجهات التي تؤكدها الفلسفة التربوية السائدة، كما تتجلى مهمة الخبير النفسي في شرح طبيعة هذه التوجهات، لكي تغدو واضحة لهذه اللجان، فضلًا عن تقديم الأمثلة التي توضح لهم النصوص التي تعكس أنساقًا قيمية من نوع معين، ومحاولة تدريبهم على عملية الانتقاء.

وعلى ذلك نقول: إن غياب الخبير النفسي عن لجان التأليف قد أفضى إلى انتقاء النصوص التي لم تكن منسجمة تمام الانسجام مع خطاب الفلسفة التربوية.

الهوامـــش

(1) J.E.Mc Grath. Social Psychology: A breif introduction. (New York: Holt, Rinehart and Winston, 1964), P. 105.

(2) A.L. Baldwin, Behavior development in childhood. (New York: Holt, Rinehart and Winston, 1955), p. 231

(3) E.M. Hetherington and R.D. Parke, Child Psychology: Acontemprary view point, 3rd ed. (New york: Mc Graw-Hill book company, 1986), p. 600-601.

(٤) محمود شمال حسن، سيكولوجية الفرد في المجتمع: مدخل، ط١. (القاهرة، دار الآفاق العربية، ٢٠٠١) ص: ١٥٦، ١٥٧.

(5) L.A.H Jell and D.J. Ziegler, Personality theories: Basic assumptions, Research and Application, 2nd ed, (Auck Land: Mc Graw- Hill book company, 1981), p. 311.

(6) M. Al-Hamadani, Dominant value orientation in Iraqi public school readers as revealed by content analysis. (Indiana University: unpublished doctoral dessertation, 1960), p.67.

(٧) هدى عبد الوهاب الخطيب، التحولات في الاتجاهات القيمية لكتب المطالعة العربية للدراسة الابتدائية بين (٥٧-١٩٥٨)، (٧١-١٩٧٢)، (بغداد، جامعة بغداد، رسالة ماجستير غير منشورة، ١٩٧٤) ص: ٦٢-٧٣.

(٨) موفق الحمداني ويعقوب الخميسي. كتب القراءة العربية في المرحلة الابتدائية: تحليل ونقد، (بغداد، منشورات مركز البحوث التربوية والنفسية بجامعة بغداد، ١٩٧٣) ص: ٢٢.

(٩) موفق الحمداني وعون الشريف قاسم، كتب المطالعة في المدارس الأولية في السودان، في خلف نصار الهيثي، القيم السائدة في صحافة الأطفال العراقية، (بغداد، دار الحرية للطباعة، ١٩٧٨) ص: ٢٧، ٢٨.

(١٠) ميخائيل وديع سليمان، القيم والتطور الاجتماعي في الهيثي، القيم السائدة في صحافة الأطفال العراقية، ص: ٣٠، ٣١.

(١١) عبد الباسط عبد المعطي. التعليم وتزييف الوعي الاجتماعي، دراسة في استطلاع مضمون بعض المقررات الدراسية، مجلة العلوم الاجتماعية. المجلد ١٢، العدد ٤ (١٩٨٤) ص: ٧١-٧٣.

(١٢)نادية حسن سالم، التنشئة السياسية للطفل العربي، دراسة لتحليل مضمون الكتب المدرسية، المستقبل العربي، السنة ٦، العدد ٥١ (آيار– مايو، ١٩٨٣) ص: ٥٩.

(١٣) المصدر نفسه، ص: ٦٣.

(١٤) فتحي يوسف مبارك، القيم الاجتماعية اللازمة لتلاميذ الحلقة الثانية من التعليم الأساسي، ودور مناهج المواد الاجتماعية في تنميتها للطالب في عائشة أحمد فخرو، القيم الأسرية المتضمنة بمناهج الاقتصاد المنزلي في المرحلة الثانوية في دولة قطر، مجلة البحوث التربوية (قطر)، السنة ٨، العدد ١٥، (يناير، ١٩٩٩) ص: ٢٤.

(١٥) كلثم الغانم، قيم العمل في المجتمع القطري، في فخرو. القيم الأسرية المتضمنة بمناهج الاقتصاد المنزلي في المرحلة الثانوية في دولة قطر، ص: ٢٥.

(16) B.Berelson, content analysis in communication research. (New York: Hafner Publishing company, 1971), p. 138-140.

(17) J. W. Mc David and H. Harari, Psychology and Social behavior. (New York: Harper and Row, Publishers, 1974), P. 42

O. R. Holsti, content analysis for the social sciences and Humanities. (California: Addison-Wesley Publishing company, 1969), p. 135.

B. Berelson, content analysis in: G. Lindzey, Hand book of Social Psychology: Theory and Method, Vol. 1, 3rd ed. (Massachustts: Addison-Wesley Publishing company Inc., 1959), p. 514.

(18) Holsti, content analysis for the social sciences and Humanities, p. 140.

ب- التوجهات القيمية السائدة في أدب الأطفال

يعد أدب الأطفال Children's literature إحدى وسائل الاتصال الجمعية التي تهدف إلى تزويد الأطفال بمعلومات عن أنفسهم، وعن العالم المحيط بهم، أو بمعنى آخر، إنه وسيلة اتصالية تهدف إلى تزويد الأطفال بخبرات ومعارف ومعلومات تفضي إلى تشكيل مدركاتهم عن العالم الذي يحيط بهم، فضلًا عن معرفة أنفسهم.

وبذلك يكون أدب الأطفال نوعًا من الخطاب يهدف إلى تنمية المهارات الاجتماعية لدى الصغار؛ وذلك من خلال إرشادهم إلى الطريقة التي تنظم فيها العلاقات مع الأفراد الآخرين، طبقًا للأعراف والتقاليد السائدة في الثقافة.

كما يهدف أدب الأطفال إلى تنمية القيم الخلقية، وذلك يتم من خلال التمييز بين المحظور والمباح، أو التمييز بين المحلَّل والمحرَّم، كذلك يهدف هذا الأدب، إلى تنمية القيم المعرفية، بهدف تكوين تصورات واضحة عن العالم الذي يحيط بهم، ومن ثم إضفاء تفسيرات موضوعية على الظواهر التي تحدث في البيئة، تلك التفسيرات التي تنبذ الأفكار اللاعقلانية بعد ذلك.

وفي المحصلة النهائية، يهدف هذا الأدب إلى مساعدة الأطفال على تكوين تصورات واضحة عن بعض المفاهيم المعرفية، والاجتماعية، والخلقية، بطريقة مبسطة تتناسب مع قدراتهم العقلية النامية.

لقد قلنا: إن أدب الأطفال هو نوع من الخطاب، والخطاب عادة ما يعبَّر عنه بصيغة لفظية، كما هو الحال في القصة، والشعر، والمسرحية، أو يعبَّر عنه بصيغة غير لفظية، كما هو الحال في الحركة، أو الإشارة، أو الإيماءة، أو الصورة المتحركة في الأفلام المتحركة، أو الصورة الحية لشخص أو مجموعة أشخاص.

وإذن: فإن أدب الأطفال يهدف بين ما يهدف إليه، هو تهيئة الطفل لأن يكون مواطنًا مِعْطَاءً في المستقبل، وهذا ما يحقق مقولة (المجتمع المنجز).

وهنا نثير تساؤلًا مؤداه: هل بلغ أدب الأطفال في المجتمع العربي الأهداف المرسومة له؟ أو بمعنى آخر: ما القيم التي أكدها هذا النوع من الأدب؟

من المفيد الإشارة هنا إلى أن أدب الأطفال لم يكن بديلًا عن المقررات الدراسية، كذلك لم يكن متممًا أو مكمِّلًا لها، بل هو عالم مستقل بحد ذاته، هذا لا يعني أن الاثنين -أدب الأطفال والمقررات الدراسية- لا تجمعهما صلة أو رابطة، بل إنهما يلتقيان في هدف مشترك، ألا وهو تشكيل سلوك الناشئة طبقًا لأهداف الفلسفة التربوية السائدة، التي تهدف بين ما تهدف إليه إعداد الطفل لأن يكون مواطنًا صالحًا في المستقبل، وقادرًا على خدمة المجتمع.

إن تشكيل سلوك الناشئة طبقًا لأهداف الفلسفة التربوية يعد من الأهداف العامة، الذي أجمعت عليه كل من المؤسسة التربوية والمؤسسة الثقافية في المجتمع، بيد أن طرق تشكيل السلوك تختلف بين الاثنين، فالمؤسسة التربوية تشكل سلوك الناشئة عن طريق المقررات الدراسية التي تتخذ من الخطاب المعرفي، الثقافي، التلقيني أسلوبًا في التشكيل السلوكي، إلى جانب التركيز على المعلم بوصفه القدوة، أو النموذج الذي يتم من خلاله تشكيل السلوك.

أما المؤسسة الثقافية، فإنها تعمد إلى تشكيل السلوك بأسلوب واحد وحسب، ألا وهو الأدب الذي يوجه إلى الأطفال بصيغة خطاب لفظي، أو غير لفظي، على أن فاعلية التأثير في تشكيل السلوك تعتمد هنا على الإقناع، وهذا بدوره يعتمد على جاذبية الخطاب الموجه، وتنوع الطرق التي يُوَجَّه بها

الخطاب إلى جمهور الأطفال، فضلًا عن إشباعه لحاجاتهم النفسية والاجتماعية.

وإذن: فإن المقررات الدراسية لا تكمل مسيرة أدب الأطفال، ولا يمكن أن يكون أحدهما بديلًا عن الآخر، وأن الغاية المتوخَّاة لكل منهما؛ هو تشكيل سلوك الأطفال بطريقة تتطابق مع الأهداف العامة للفلسفة التربوية السائدة.

عود على السؤال الذي أثرناه: هل بلغ أدب الأطفال في المجتمع العربي الأهداف المرسومة له؟ أو بمعنى آخر: ما القيم التي أكدها هذا النوع من الأدب؟

قبل الإجابة عن السؤال لا بد من الإشارة في هذا السياق إلى أن ثمة تفاوتًا في الاهتمام بأدب الأطفال في البلاد العربية، ومبعث هذا التفاوت يعود إلى أسباب عدة ولعل من أبرزها:

١- إن المؤسسات الثقافية في البلاد العربية متفاوتة من حيث فعاليتها وكفاءتها، وذلك يرجع أساسًا إلى الحرية التي تتمتع بها هذه المؤسسات، فكلما كانت تتمتع بقدر من الحرية في العمل؛ كانت أكثر فاعلية وكفاءة، والعكس صحيح.
٢- كذلك، فإن الفلسفة السائدة ربما تشجع على الاهتمام بهذا النوع من الأدب.
٣- ولعل تيسر الإمكانات المادية للنهوض بمستلزمات هذا الأدب، ربما يكون أحد أسباب الاهتمام به.
٤- وربما تيسر الكتَّاب الذين لديهم اهتمام بأدب الأطفال، فضلًا عن القدرات التي يتمتعون بها في مخاطبة هذه الفئة العُمرية يعد سببًا مهمًّا في تسهيل وجود هذا النوع من الأدب.

إن محاولة التقصي عن القيم التي أكدها أدب الأطفال في البلاد العربية

تقودنا إلى الحديث عن الدراسات التي أجريت في هذا الصدد، وإذا نحن أجرينا مسحًا لهذه الدراسات نجد أن ثمة نُدْرَة في هذا المجال، ولعل ذلك يعود إلى الافتقار إلى دراسات تتبع أدب الأطفال منذ نشأته وحتى الوقت الحاضر؛ وذلك لرصد التغيرات الحادثة في النسق القيمي.

وسبب آخر للنُدْرَة يتعلق بالباحثين أنفسهم؛ إذ إن هؤلاء الباحثين في بعض البلاد العربية لم يتصدوا بالدراسة والتحليل لهذا النوع من الأدب، وهو الأمر الذي يزيد من التعقيد في عمل الباحثين الآخرين، كذلك هناك سبب للنُدْرَة يتعلق بالنشر، إذ إن بعض الدراسات التي أجريت لأجل تقويم أدب الأطفال بقيت محدودة التداول على صعيد المؤسسة، أو المركز البحثي الذي أجريت لحسابه الدراسة، ومع ذلك فإن ثمة دراسات أجريت هنا وهناك، يمكن الاهتداء من خلالها إلى النسق القيمي السائد في أدب الأطفال.

إذا نحن أجرينا مسحًا للدراسات التي أجريت في مجال أدب الأطفال في العراق - على سبيل المثال- نجد أن هذه الدراسات تتوزع على ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: تمتد من عام ١٩٢٢ وحتى عام ١٩٦٩. ولقد صدرت في هذه المرحلة سلسلة من المجلات، وتولى مجموعة من الأشخاص مهمة التمويل والنشر[١].

المرحلة الثانية: وتمتد من بداية عام ١٩٦٩ وحتى نهاية عقد الثمانينيات، ولقد تميزت هذه المرحلة عن سابقتها: إن المؤسسة الثقافية المتمثلة بوزارة الثقافة والإعلام قد استحدثت مؤسسة تعنى بأدب الأطفال، أطلق عليها (دار ثقافة الأطفال)، وهذه الدار هي التي تتولى عملية نشر المطبوعات الثقافية الخاصة بالأطفال، واستقدام الكُتَّاب والإشراف على عمليات التصميم والإخراج التي تميزت بجاذبية الألوان والصور المصاحبة لسرد الأحداث

والوقائع.

المرحلة الثالثة: وتمتد من بداية عقد التسعينيات من القرن العشرين، وفي هذه المرحلة حدث انقطاع لمطبوعات هذه الدار؛ بسبب عدم قدرة الدار على الإيفاء بمستلزمات الطباعة، إلى جانب ترك بعض الكُتَّاب والفنيين من مصممين ومخرجين العمل، وهو الأمر الذي أدى إلى غياب واضح للمطبوعات الصادرة عن هذه الدار.

إن غياب المطبوعات قد أفضى بدوره إلى غياب الدراسات التقويمية، إذ لم نعثر على دراسة تتناول أدب الأطفال في عقد التسعينيات من القرن العشرين. وحتى نكوِّن فكرة واضحة عن النسق القيمي لهذا النوع من الأدب، نعود إلى المرحلتين: الأولى والثانية؛ للتقصي عن النسق القيمي الذي شاع فيهما.

نبدأ **بالمرحلة الأولى**: وذلك بتتبع الأنساق القيمية التي حاولت أدبيات الأطفال تأكيدها، ومن خلال التتبع هذا وجدنا أن القيم المعرفية تعد أبرز القيم المسيطرة في هذه المرحلة، فلقد احتلت الترتيب الأول طبقًا لإحدى الدراسات، إذ بلغت نسبة هذه القيم (٣٩.٤٥٪)، ثم جاءت بعد ذلك القيم القومية، إذ احتلت الترتيب الثاني، ولكن بنسبة أقل من سابقتها فقد بلغت (٧.٨٩٪)، ثم جاءت القيم التي تؤكد المثابرة والاجتهاد فاحتلت الترتيب الثالث.

وهنا تضاءلت هذه النسبة عن سابقتها، فلقد بلغت (٤.١٠٪)، بعد ذلك جاءت القيم التي تؤكد التسلية والترفيه -الفكاهة، إذ احتلت الترتيب نفسه؛ بسبب تساوي النسب.

ثم بعد ذلك جاءت القيم التي تؤكد النشاط الحركي، والشجاعة، وحب الوطن، والتضحية، والفداء، وحب القادة والمهارات في الترتيب الرابع،

والخامس، والسادس، والسابع، والثامن، والتاسع على التوالي[٢].

من الملاحظ في هذه المرحلة؛ غياب التوازن في تناول المجموعات القيمية، وإذا نحن عدنا إلى البيانات، وجدنا أن القيم المعرفية قد أُعطيت وزنًا أكبر من المجموعات القيمية الأخرى، كذلك إن الترتيب في تناول المجموعات القيمية لم يكن منطقيًّا، فقد احتلت القيم القومية الترتيب الثاني، والقيم الوطنية الترتيب السادس، مما يؤشر أن المشرفين على هذه الأدبيات كانوا يتبنون فلسفة معينة في توجيه الأحداث والوقائع.

أما **المرحلة الثانية**: فقد حاولت تأكيد مجموعة من الأنساق القيمية، يمكن معرفتها، وكشف نوعها، من خلال الدراسات التي أُجريت في هذا الصدد.

تشير إحدى الدراسات التي حلَّلَت محتوى أدبيات الأطفال؛ أنها اعتمدت في عملية التحليل على تصنيف كلاكهون الذي سبق أن أشرنا إليه، ولقد أظهرت نتائج التحليل فيما يتعلق بمجال علاقة الإنسان بالإنسان؛ أن الصنف الأسري هو الصنف الأكثر شيوعًا وتكرارًا.

وفيما يخص مجال علاقة الإنسان بالطبيعة؛ تبين أن صنف الانسجام مع الطبيعة هو الصنف الشائع، كذلك وجد في مجال نمط الشخصية المفضل أن صنفي الوجود والوجود نحو الصيرورة، هما الأكثر تكرارًا وشيوعًا.

وأخيرًا وجد أن الماضي هو البعد الزمني المفضل، إذ كان أكثر تكرارًا وشيوعًا[٣].

وفي دراسة لاحقة، استهدفت إجراء مسح للمجموعات القيمية التي حاولت أدبيات الأطفال إشاعتها، ولقد ترتبت هذه القيم على النحو الآتي:

١ - القيم المعرفية- الثقافية.

٢- القيم الترويحية.
٣- القيم الاجتماعية.
٤- القيم القومية -الوطنية.
٥ - قيم تكامل الشخصية.
٦- القيم العملية - الاقتصادية.
٧- القيم الجسمانية.
٨- القيم الأخلاقية[٤].

في دراسة ثالثة حلل محتوى أدب الأطفال للسنوات (١٩٧٥- ١٩٨٠)، ولقد تبين من نتائج التحليل؛ أن ثمة قيمًا عليا تم التركيز عليها هي: الذكاء، والشجاعة، والإدراك والتمييز، والعمل، وحب الاستطلاع، والسعادة، والمعرفة ، والوحدة العربية، والصداقة، والتحرر[٥].

ومما له دلالة في هذا الصدد، أن مجموعة القيم المعرفية-الثقافية، لم تزل بعد تحتل الأولوية بالنسبة للمشرفين على أدب الأطفال.

وإذا نحن حاولنا أن نتحرى عن طبيعة الإنسان القيمية التي شاعت في أدب الأطفال في عقد الثمانينيات، وجدنا أن هذه الأنساق كاد أن يحافظ على ترتيبها من حيث الأولوية.

نشير في هذا الصدد إلى أن إحدى الدراسات التي حلَّلَت محتوى هذا الأدب، توصلت إلى الترتيب الآتي:

١- القيم المعرفية - الثقافية.
٢- قيم تكامل الشخصية.
٣- القيم الجسمانية.
٤- القيم الترويحية.

٥- القيم القومية – الوطنية.
٦- القيم الاجتماعية.
٧- القيم الأخلاقية.
٨- القيم العملية – الاقتصادية.[٦]

واضح أن المرحلة الثانية كانت أكثر تنظيمًا ودقة في انتقاء الأنساق القيمية المطلوب بثها إلى الأطفال، وأنها اعتمدت إلى حد ما أسلوب التخطيط للسلم القيمي، بالرغم من أن بعض المجموعات القيمية، كانت محض اجتهاد الكتَّاب، وليس من تخطيط المؤسسة الثقافية.

وإذا انتقلنا إلى مصر نجد أن ثمة اهتمامًا واضحًا بأدب الأطفال، بيد أن هذا الأدب كان في بداياته ينطلق من أفكار تنطوي على الجزم والقطع، وعلى مقولات دارجة، وهذا ناجم بطبيعة الحال عن غياب التخطيط للسلم القيمي.

نشير في هذا السياق إلى أن إحدى الدراسات أجرت تحليلًا لمحتوى الأفكار الواردة في مجلة سمير التي تصدر عن دار الهلال. وتوصلت هذه الدراسة؛ أن ثمة غلبة للاتجاه الذي يحط من مكانة المرأة في المجتمع، كما توصلت الدراسة أن الفكر الذي بث إلى الناشئة عبر صفحات هذه المجلة كان يعبر عن اتجاه لا يؤمن بالمساواة بين الجنسين[٧].

فضلًا عن بث أفكار تستند إلى معتقدات شعبية فيما يخص قدرات المرأة وخصائصها الشخصية وسلوكها[٨] في المجتمع، وهذا يعكس توجهات شخصية، وحسب. ويبدو أن أدب الأطفال الذي صدر فيما بعد كان أكثر عقلانية، إذ ركز على بث فكر يشتمل على بعض الحاجات النفسية، ولعل من أهمها؛ الحاجة إلى الاستقصاء، والحاجة إلى العدوان، والحاجة إلى التوادد، والحاجة إلى الإنجاز، والحاجة إلى العطف[٩].

وبالرغم من أن الحاجة إلى العدوان قد احتلت الترتيب الثاني في قائمة الحاجات، فإنها تعد من الحاجات التي لا يفضل شيوعها في هذا النوع من الأدب، ومع ذلك فإن الفكر الذي بث إلى الصغار، قد اتصف بالعقلانية، وابتعد إلى حد ما من المقولات الدارجة التي تردد على ألسنة العامة من الناس.

وفي تونس: كانت أدبيات الأطفال تستهدف إشاعة المجموعات القيمية الآتية:

١- قيم تكامل الشخصية.
٢- القيم الاجتماعية.
٣- القيم الأخلاقية.
٤- القيم الجسمانية.
٥- القيم العملية – الاقتصادية.
٦- القيم الترويحية.
٧- القيم المعرفية – الثقافية.
٨- القيم القومية – الوطنية.[١٠]

وفي الأردن: ترتبت المجموعات القيمية على النحو الآتي طبقًا للمسح الذي أُجري لهذه الأدبيات.

١- قيم تكامل الشخصية.
٢- القيم الاجتماعية.
٣- القيم الترويحية.
٤- القيم الجسمانية.
٥- القيم الأخلاقية.
٦- القيم المعرفية – الثقافية.

٧- القيم العملية – الاقتصادية.
٨- القيم القومية – الوطنية.[١١]

وأما في لبنان، فلقد صدرت مجموعة من المطبوعات الثقافية التي تعنى بأدب الأطفال، هذه المطبوعات لم تكن انعكاسًا لتوجهات لبنانية خالصة، وإنما هي مزيج لتوجهات لبنانية وفلسطينية في آنٍ واحد، ولكي نتعرف على طبيعة القيم التي حاول المرسل أن يبثها في أدب الأطفال هناك، نقول: إن هذه الوسيلة الاتصالية أكدت جملة من القيم، ولعل من أهمها: استكشاف الحياة.[١٢]

وهنا يدعو هذا النوع من الأدب، الناشئة إلى الأساليب التي يتم من خلالها استكشاف الحياة ومحاولة معرفة أسرارها، ولكن بطريقة مبسطة. كذلك يؤكد هذا الأدب: أن السلاح يعد عاملًا رئيسًا في استعادة الأرض السليبة في فلسطين، على أن الخطاب السائد في هذا الأدب يهمل العوامل الأخرى التي هي من قبيل الوحدة، والتضامن، والمعرفة، والإخلاص، والعمل[١٣]، وكأن المرسل هنا يريد أن يوحي برسائله هذه؛ أن المعرفة، والعمل، والتضامن لا تعد عوامل مهمة في تحريرها، أو أنها عوامل غير ذات موضوع، ثم يمضي المرسل في توجيه رسائله إلى الناشئة، مؤكدًا التسلية والترفيه؛ وذلك بتناول الشخصيات الطفولية التي تعاني من العاهات الجسدية موضوعًا للتندر والسخرية[١٤].

والحقيقة؛ إن دل هذا على شيء، فإنما يدل على أن الرسالة الاتصالية تنطوي على بعض المخاطر، ولعل من أهمها: السخرية والتهكم من الآخرين، فضلًا عن تنمية اتجاه سلبي نحو الأفراد الذين يعانون من بعض العاهات الجسدية.

ويبدو أن المرسل كان يستهدف في رسائله هذه، جذب انتباه الأطفال؛ وذلك لضمان دوام المتابعة لها في وقت لاحق، ولا يستهدف تنمية اتجاهات معادية لهذه الفئة الاجتماعية.

ومع ذلك، نقول: إن المرسل يفترض أن يكون واعيًا للرسائل التي يرسلها إلى جمهوره؛ لكي يتجنب نفور بعض الأفراد لخطابه، وأن يركز على خطابه، يُظهر فيه أن الحياة تشتمل على السليم بدنيًّا والمعاق معًا، وأن كليهما يسهمان في تقدم المجتمع، ويلاحظ كذلك على أدب الأطفال في لبنان، شيوع الرؤية الشعبية المتعلقة بالمرأة، فالمرأة كما عالجها هذا الأدب هي أضعف إيمانًا وأقل تدبيرًا[١٥]، أو لنقل إن قضية المرأة طرحت بصيغة الخطاب الشعبي المتداول، وبذلك فإن الأدب هنا، غدا مضللًا أو مزيفًا للوعي، ولم يتمكن من بلوغ المطلوب في طرح خطاب يناقض ما درج عليه العامة من الناس. ولعل أخطر ما حاول تأكيده أدب الأطفال هذا، إقحام الصغار في عالم الكبار[١٦] قبل الأوان، وفي ذلك إشارة صريحة إلى غياب التخطيط في بث الأنساق القيمية المطلوبة لمرحلة الطفولة.

وبعد: ما الذي نستخلصه من هذه الحالات المنتقاة؟

نستخلص عددًا من الاستنتاجات ولعل من أبرزها:

١- شيوع الخطاب التقريري في أدب الأطفال، وهو الأمر الذي يجعله باعثًا على السأم والملل، ومن ثم يفقد وظيفته الإقناعية.

٢- إن خطاب الوعظ والإرشاد والتوجيه، كان مباشرًا في الدعوة إلى تبني نمط معين من السلوك، ورفض نمط آخر.

ومن السهولة بمكان أن يكتشف الطفل نوايا هذا الخطاب ومقاصده، مما يفضي إلى مقاومته، وعدم الإنصات إليه.

٣- لقد افتقر أدب الأطفال إلى التوازن في تناول المجموعات القيمية، إذ

أعطيت بعض المجموعات القيمية وزنًا أكبر من المجموعات القيمية الأخرى، وهذا يعني جملة؛ أن المشرفين على هذا الأدب، كانوا يعكسون توجهاتهم الفلسفية، أكثر مما يعكسون توجهات الفلسفة التربوية.

٤- شيوع المحاكاة أو التقليد للمقررات الدراسية، إذ أخذت بعض أدبيات الأطفال تقلد المنهج الدراسي لمادة العلوم مثلًا، أو أنها تقلد مادة المطالعة العربية، أو أنها تقلد مادة التاريخ أو الجغرافية في استعراض الوقائع أو الأحداث أو التعليق عليها، وهو الأمر الذي جعل الناشئة يشعرون بعدم وجود فروق تذكر بين المقررات الدراسية التي تدرس لهم في المدرسة والأدبيات الموجهة إليهم.

٥- إن التوجهات الأيديولوجية السائدة، قد سيطرت على الخطاب الموجه إلى الأطفال عبر أدبياتهم، وهذا يعني؛ أن المرسل انشغل بإيصال الأدلجة الحادثة في المجتمع أكثر من انشغاله بإيصال التوجهات القيمية التي تدعو إلى التعاون والحث على الإنجاز والتطلع إلى المستقبل، والاستثمار العقلاني لموارد الطبيعة.

٦- إن أدب الأطفال يفتقر إلى التوازن في توزيع أبعاد الشخصية؛ فالشخصية الإنسانية -كما هو معروف- تستند إلى أربعة أبعاد هي: البعد البدني، والبعد العقلي، والبعد الاجتماعي، والبعد الانفعالي.

فالبعد البدني -على سبيل المثال- لم يخصص له حيزًا كافيًا من الخطاب، كذا الحال مع البعدين الانفعالي والاجتماعي، فقد حظي هذان البعدان، بنصيب قليل من الخطاب، بينما استحوذ البعد العقلي على النصيب الأكبر.

وتأسيسًا على ما سبق؛ ينبغي إعادة النظر في عموم الأدب الموجه إلى الأطفال؛ بقصد استثارة دوافعهم، ولا سيما تلك الدوافع المتعلقة بالإنجاز.

الهوامش

١- هادي نعمان الهيثي، صحافة الأطفال في العراق، نشأتها وتطورها مع تحليل لمحتواها، ط٢ (بغداد، دار ثقافة الأطفال، ١٩٨٧) ص: ٧٤.

٢- المصدر نفسه، ص: ٩٥.

٣- محمد موسى جياد، تحليل لأدبيات الأطفال العراقيين غير المدرسية (بغداد، منشورات مركز البحوث التربوية والنفسية بجامعة بغداد، ١٩٧٥) ص: ٣٤-٤٨.

٤- الهيثي، القيم السائدة في صحافة الأطفال العراقية، ص: ٨٧.

٥- H. H. Al-filfli, content analysis of children's educational literature in Iraq. (University of Wales: un published doctoral dessertation, 1983), p. 149.

٦- خولة أحمد النوري، القَيِّم في قصص الأطفال في بعض الأقطار العربية (بغداد: جامعة بغداد، أطروحة دكتوراه غير منشورة، ١٩٨٥) ص: ١١٩- ١٢٠.

٧- حازم النعيمي، مجلات الأطفال العربية ودورها في تكوين المفاهيم، المستقبل العربي، السنة٢، العدد ٨ (تموز - يوليو، ١٩٧٩) ص: ١٤٢.

٨- المصدر نفسه، ص: ١٤٢.

٩- هدى برادة وآخرون، دراسة تحليلية لقصص الأطفال الشائعة، في شذى عبد الباقي محمد العجيلي، دراسة تحليلية لقصص الأمهات العراقيات (بغداد، جامعة بغداد، رسالة ماجستير غير منشورة، ١٩٧٩) ص: ٢٠- ٢٢.

١٠- النوري، القيم في قصص الأطفال في بعض الأقطار العربية، ص: ١٧١.

١١- المصدر نفسه، ص: ١٤٥.

١٢- شوكت أشتي، القيم الاجتماعية في أدب الأطفال، ط ١ (بيروت، دار النضال، ١٩٩٩) ص: ٨٧.

١٣- المصدر نفسه، ص: ٨٩.

١٤- المصدر نفسه، ص: ٩٥.

١٥- المصدر نفسه، ص: ١٣١.

١٦- المصدر نفسه، ص: ١٤٤.

فهرس

الموضـــــوع	صفحة
أولًا: مدخل.....	٥
- مفهوم البيئة.....	٥
- أنواع البيئات.....	٧
ثانيًا: الدراسات التي تناولت العلاقة بين نوعية البيئة وتشكيل سلوك الأطفال.....	٩
١-تصميم البيئة المزدحمة وأثره في تنمية الأنماط السلوكية لدى الأطفال.....	١٣
٢- دراسة مقارنة في الخصائص النفسية بين المتسربين من الدراسة وأقرانهم.....	٤٩
٣- الآثار النفسية المترتبة علي تعرض الصغار إلى الأزمة الاقتصادية.....	٨٧
٤- غياب الأب وأثره في التنميط الجنسي للأطفال الذكور.....	١٠٨
٥- التوجهات القيمية السائدة في المطبوعات الموجَّهة إلى الأطفال.	١٥٣
أ- التوجهات القيمية السائدة في المقررات الدراسية.....	١٥٥
ب- **التوجهات القيمية السائدة في أدب الأطفال**.....	١٩١